الباب الأول

حياة المؤيد فى الدين
داعى الدعاة

الفصل الأول

المؤيد فى فارس

اسمه ولقبه وأسرته

عرف شاعرنا فى التاريخ بلقبه «المؤيد فى الدين» وعرف أحيانا بالمؤيد فقط، فجميع كتب الدعوة التى أشارت إليه تعرفه بذلك، ولا نستطيع أن نحدد متى أطلق عليه هذا اللقب فى أول الأمر، ولا نستطيع أن نعرف من الذى أطلقه عليه فالمصادر التى بين أيدينا لم تحدثنا عن ذلك، وأقدم نص عرفناه عن هذا اللقب هو ما ذكره المؤيد نفسه فى السيرة المؤيدية أن الملك أبا كاليجار البويهى المتوفى سنة أربعين وأربعمائة من الهجرة أرسل إلى الشاعر خطابا ابتدأه بقوله: لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين أبى النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده[1]، وتاريخ هذا الخطاب هو – كما أرجح – عقب وصول المؤيد مصر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة كما سنذكر بعد.

وفى مناظرة أبى علاء المعرى مع داعى الدعاة خاطب أبو العلاء الداعى بلقبه فقال فى الرسالة الأولى «أول ما أبدأ به أنى أعد سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين أطال الله بقاءه...[2]» وفى الرسالة الثانية قال المعرى «سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين[3]» وسنذكر أن هذه المناظرة كانت حوالى سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

وذكره ناصرى خسرو المؤيد – وكان معاصرا له – فى ديوانه فقال:

كــه كـرد ازخاطر خواجه مؤيـد درحكمـت كشـاده بـرتـويزدان[4]

أى: فقد فتح الله من خاطر الخواجه المؤيد باب الحكمة عليك[5].

ومن تحدث عن المؤيد من المؤرخين ذكره بعضهم بلقبه فقط فابن ميسر قال فى تاريخه إنه فى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة من الهجرة جهز الوزير اليازورى خزائن الأموال على

(١) السيرة المؤيدية ص ١١٤.

(٢) ياقوت الحموى معجم الأدباء ج ٣ ص ١١٨ (طبعة فريد رفاعى).

(٣) ياقوت الحموى معجم الأدباء ج ٣ ص ١٩٤.

(٤) ص ٣١٣ بيت ٢٤ ديوان ناصرى خسرو طبع طهران سنة ١٣٠٧هـ.

(٥) تفضل بترجمة هذا البيت عن الفارسية الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين.

يد المؤيد فى الدين لأبى الحارث البساسيرى[1] بينما ذكره ابن منجب بلقبه واسمه[2] وذكره صاحب مرآة الزمان بكنيته[3].

على أن الشاعر لم يذكر لنا هذا اللقب فى شعره أو فى كتبه التى بين يدى إلا فى خطاب أبى كاليجار.

أما اسمه فهو «هبة الله» ويكنى بأبى نصر، ولم أجد خلافا فى اسمه أو كنيته كما لم أجد خلافا فى لقبه. أما اسم أبيه فقد اختلف فيه الأستاذ إيفانوف قال مرة إنه الحسين أو موسى[4] ثم قال فى كتاب آخر إن اسم أبيه الحسين[5] كأنه رجح أخيرا هذا الاسم. وهذا ما لم يحدثنا به أحد غيره لأن جميع النصوص التى وصلتنا تدلنا على أن الشاعر هو هبة الله بن موسى بن عمران. ويكفى أن تقرأ ديوان المؤيد لتدرك ذلك فقد ذكر المؤيد اسم أبيه فى الشعر:

نـظم ابن موسى وهو عبد الظاهر ذاك الإمـام بن الإمــام الطاهـر[6]

وقال فى قصيدة أخرى يذكر كنية أبيه:

لابـن أبى عمران فى الموالى نــظـم كـنظم الــدر واللآلى

واختلف أيضا فى اسم جد المؤيد فذهب إيفانوف إلى أن اسم جده علىّ[7] وخالفه الدكتور حسين همدانى فقال بل (داود)[8]. وجاء فى كتاب الأزهار لحسن بن نوح. «وكفى بما أورده سيدنا المؤيد فى الدين صفى أمير المؤمنين هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى»[9] وفى رسالة مباسم البشارات للكرمانى أن الإمام الحاكم أرسل سجلا إلى موسى بن داود. مما يرجح ان اسم جده «داود».

---

(١) تاريخ مصر لابن ميسر. ص ٥٨ (طبعة المعهد الفرنسى).

(٢) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٦٩.

(٣) مرآة الزمان، حوادث عام ٤٤٨ هـ.

(٤) A Guide to Ismaili Literature. P. 47

(٥) The Creed of Fatimide. P 5

(٦) القصيدة الأولى.

(٧) A Guide to Ismaili Literature. P 47

(٨) J R.A.S. 1932 Part I. P. 129

(٩) الأزهار ج ١ ص ٢ نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن رقم ٢٥٨٤٩.

وتتفق جميع النصوص على تسميته «بالسلمانى» نسبة إلى سلمان الفارسى فمن المؤرخين من ذهب إلى أن المؤيد من نسل سلمان الفارسى من ذلك ما قاله صاحب عيون المعارف: هبة الله بن موسى من ولد سلمان الفارسى[1]. ولكن الخطاب بن حسن الداعى اليمنى المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة من الهجرة قال[2]: والمؤيد فى الدين إذا انتسب كان من أهل البيت سلمانيا وقد قال المؤيد موضحا لرتبته التى هى رتبة سلمان ومبينا أنه قائم بما قام به فى ذلك الأوان حيث يقول:

لو كنت عاصرت النبى محمدا ما كنت أقصر عن مدى سلمانه
ولقال «أنت من أهل بيتى» معلنا[3] قولا يكشف عن وضوح بيانه[4]

مما يدلنا على أن الداعى الخطاب لم يثبت للمؤيد نسبا جسمانيا إلى سلمان الفارسى بل ذهب إلى أن مرتبة المؤيد فى عصره تماثل مرتبة سلمان فى عصره. وهذا ما قاله أيضا الداعى إدريس المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة فى كتابه زهر المعانى[5]. ولعل السبب الذى من أجله ادعى صاحب عيون المعارف أن المؤيد من نسل سلمان هو ما دان به الفاطميون من النسب النفسانى أو الروحى وأنه كالنسب الجسمانى. ففى ذلك قال إخوان الصفا «النسبة الجسدانية تنقطع اذا اضمحلت الأجسام وبقيت النسبة النفسانية لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد. وإن كان يظن أن الابن الجسدانى يحيى ذكر أبيه بعد موته فالابن النفسانى أيضا، إن عاش أحيا ذكر أبيه فى مجلس العلماء كما نذكر نحن معلمينا وأستاذينا أكثر مما نذكر آباءنا الجسدانيين[6] وقولهم أيضا «واعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة حياتها[7] ومن ذلك أيضا ما رواه الفاطميون أن النبى قال لعلى: أنا وأنت أبوا هذه الأمة[8].

---

(١) عيون المعارف لعلى بن صالح ص ٤٥٨.

(٢) غاية المواليد الثلاثة لسيدنا الخطاب على هامش جامع الحقائق ج ١.

(٣) يشير المؤيد إلى الحديث النبوى سلمان منا أهل البيت. المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٧.

(٤) هذان البيتان من قصيدة المؤيدية الثامنة والثلاثين.

(٥) Hamdani: J.R.A.S. 1932 P. 129

(٦) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١١٦.

(٧) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١١٣.

(٨) المجالس المؤيدية فى مواضع متعددة.

وأغلب الظن أن المؤيد لم يسم بالسلمانى إلا لقوله هذا الشعر الذى تحدث فيه عن مرتبته التى كانت تماثل مرتبة سلمان الفارسى.

لم يصلنا شيء عن أسرة المؤيد، ولا نكاد نعرف عن هذه الأسرة إلا ما ذكره المؤيد فى شعره كقوله:

يفديك مولى لم يزل آباؤه ناشين فى نعمائكم ولم يزل
ولم يحولوا ساعة عن طاعة محمودة لأمركم ولم يحل[1]

وقوله:

فداك ابن موسى الذى لم يزل إلى عز طاعتكم ذا انتساب
ومازال آباؤه فى العبيد سراة العبيد وخير الصحاب[2]

وقوله:

سل بقعة الأهواز عن فِعلى تُجبك معاهد
وحقوق آبائى فما نافٍ لها أو جاحد[3]

وقوله:

وإن ابن موسى وآباءه معاهد حقهم عامرة
فقد خدموكم وما نشرت لواء الفتوح يد ناشرة[4]

وجاء فى السيرة المؤيدية على لسان المؤيد يخاطب وزير أبى كاليجار «إن والدى كان فى هذه البلاد متسما بهذا الوسم (أى بالمذهب الفاطمى) مترسما بهذا الرسم، وكان له من المكنة والقدرة واليد ما كان يغنيه عن أن يطأ عتبة باب أو يقاسى ذل حجاب وكان الوزير أبو غالب الواسطى الملقب بفخر الملك وزير الوزراء الذى كان ما كان باتساع مكنته وانبساط يده نازلا فى هذه الدار التى تنزلها فلم يعهد والدى قط داخلا إليه ولا مسلما عليه ووجد ذلك غير دفعة يزوره ليلا فى بيته ويغشاه فى منزله»[5]

(١) القصيدة الرابعة ٥٩ و ٦٠.
(٢) القصيدة الحادية عشرة ٤١ و ٤٢.
(٣) القيصدة الأربعون ٣٥ و ٣٦.
(٤) القصيدة الحادية والأربعون ٢٩ و ٣٠.
(٥) السيرة المؤيدية ص ٢٠.

من هذا كله نستطيع أن نثبت أن المؤيد كان من أسرة اتخذت التشيع دينا لها والفاطمية مذهبا وأن والده كان داعيا للمذهب الفاطمى بشيراز وكانت له حرمته ومكانته بين الناس حتى إن الوزير كان يزوره فى منزله دون أن يزور هو الوزير. ونعلم أن أباه كتب إلى الحاكم بأمر الله يطلب أن يقيم أحد ولديه فى الدعوة مكانه فأبى الحاكم عليه ذلك وأرسل إليه يوبخه[1] هذا كل ما نعرفه عن هذه الأسرة التى نشأ بينها المؤيد.

المؤيد فى شيراز

إن تكن لى شيراز دارا ومنها نشأ الجسم لى وليدا وشبا[2]

هكذا قال المؤيد عن مولده ونشأته فقد ولد بشيراز فى سنة لم يحددها لنا المؤرخون ولم يحدثنا هو عنها. وقد ظن الدكتور حسين الهمدانى أن المؤيد كان فى التاسعة والعشرين من عمره حين طلب إليه أن يغادر وطنه سنة تسع وعشرين وأربعمائة من الهجرة[3] أى أن الدكتور الهمدانى ذهب إلى أن المؤيد ولد سنة أربعمائة من الهجرة ولكنى أخالفه فى هذا الرأى وأذهب إلى أن المؤيد ولد قبل ذلك التاريخ وأستدل بشعر المؤيد على أنه ولد حوالى سنة تسعين وثلاثمائة فقد قال المؤيد فى ديوانه يحدث إمامه المستنصر:

لى فى هجرة إليك تمنٍ وقد تمنيته وإنى غلام

وتدانى من أربعين لى السن ولم يقض للتمنى ذمام[4]

وهذان البيتان من قصيدة أنشدها المؤيد بعد وفاة الإمام الظاهر وبعد أن تولى المستنصر الخلافة سنة سبع وعشرين وأربعمائة أى أنه حوالى هذه السنة كان فى الأربعين من عمره وأنشد المؤيد مرة أخرى أثناء محنته وقبل أن يصل مصر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة:

غدا باع آمالى قصيرا من الورى جميعا وفى عفو الإله ممددا

وأيقنت أنى بعد خمسين حجة من العمر قربت المنية مقصدا[5]

(١) رسالة مباسم البشارات لحميد الدين الكرمانى الفصل الثامن (نسخة خطية عندى).

(٢) ق ١٥ بيت ٢٧.

(٣) J R A S. 1932. I. P. 130

(٤) ق ١٢ / ٣٧ - ٣٨.

(٥) ق ٣٩ / ٦ - ٧.

أى إن المؤيد كان فى الخمسين من عمره قبل أن يصل مصر، وقال مرة ثالثة حين عودته من مؤامرة البساسيرى سنة خمسين وأربعمائة:

هـــذا جـــزاء مـــن قضـى ستينـــهـــا مـــن حـجج[1]

فهذا كله يدلنا على أن المؤيد ولد حوالى سنة تسعين وثلاثمائة من الهجرة.

لا نعرف شيئا عن نشأة المؤيد كما لم نعرف تاريخ ميلاده. ولكن يتضح من شعره أنه مرت عليه أيام بؤس وشقاء قاسى فيها ألوان الذلة والمسكنة، واضطر إلى أن يسافر مرارا وإلى أن يصاحب قوما لا يضمرون له سوى الحقد والكراهية[2]. ألم بذلك فى شعره. ولكنه لم يصف لنا هذا الشقاء الذى قاساه، ولا الذلة التى منى بها. وإن كان قد حدثنا كثيرا بأنه كان مضطهدا أكثر أيام حياته بسبب مذهبه الذى كان يخالف مذهب أهل بلدته.

وكل ما نعرفه عن المؤيد قبل سنة تسع وعشرين وأربعمائة أنه ما زال يرقى فى مراتب الدعوة الفاطمية حتى صار إليه أمر المذهب فى شيراز إذ أصبح حجة جزيرة فارس ولا ندرى متى صار حجة فارس وكل ما وصلنا أن جمهور أهل مذهبه قالوا عنه للوزير العادل بهرام بن ماقيا[3] فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة «إنهم قوم يعتقدون اعتقادا تقرر فى نفوسهم حقه وتأكد عليهم بعهود ومواثيق أخذها فرضه وأنهم يتخذون هذا الرجل المقيم به (أى المؤيد المقيم بالمذهب الفاطمى) أبا لهم وأخا وصاحبا ومحلا لكل سر ومفزعا فى كل خير وشر[4]» أى أن المؤيد كان زعيما للمذهب الفاطمى وشيخه فى فارس فى هذه السنة ولا ندرى شيئا عن الخطوات التى سلكها المؤيد قبل أن يصل إلى هذه الدرجة الرفيعة لأننا نجهل تاريخه قبل هذه السنة. ويعد آخر شهر رمضان من سنة تسع وعشرين وأربعمائة مبدأ علمنا بأخبار المؤيد فقد اتخذ هذا التاريخ ابتداء سيرته التى كتبها عن نفسه. أما قبل هذا التاريخ فحياة المؤيد غامضة أشد الغموض. ولو لم يكتب سيرته لبقيت حياته كلها مجهولة بالرغم مما فيها من أحداث كان لها أكبر أثر فى تاريخ مصر الإسلامية بل فى تاريخ العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى.

---

(١) ق ٢١ / ١٠.

(٢) ق ٥٧.

(٣) هو الوزير العادل أبو منصور بهرام بن ماقيا بن شهد ولد سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٣٣ هـ [ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٤].

(٤) السيرة ص ١٣

اتخذ المؤيد آخر رمضان من سنة تسع وعشرين وأربعمائة مبدأ ما كتبه لسيرته لأن هذا التاريخ يعد مبدأ محنته التى ظل يعانى أثرها حتى وفاته وإن كان قد تحدث فى قصيدته السابعة أنه كان مضطهدا من جمهور أهل السنة بشيراز قبل هذا التاريخ ولكن شقاءه بعد ذلك التاريخ كان قاسيا عنيفا.

حدثنا المؤيد إنه عمل على الاحتفال بعيد الفطر سنة تسع وعشرين وأربعمائة[1] ولما كان العيد عند الفاطميين قبل عيد أهل السنة بيوم فقد كثر حديث أهل شيراز عما عمله المؤيد وزعموا أن المؤيد إنما أراد باحتفاله بعيد الفطر إقامة الدعوة للخليفة المستنصر الفاطمى وأرجف أنصار المؤيد أن العامة أرادوا سوءا به، فتردد عليه شيعته للاستفسار عن أمره وجاء العيد وأقبل عليه خلق كثير، فصلى بهم ووعظهم كعادته ولم يحدث شىء مما توهمه الناس ولكن الوزير العادل استدعاه ثالث يوم ونصحه بالخروج من البلد لأن السلطان توعد المؤيد بالقتل وأن علماء المدينة استعدوا عليه[2] السلطان، فأجابه المؤيد بأنه لا مصلحة له مادية فى مقامه بشيراز وما أقام بها إلا عصبية للدين الذى كان يدين به ومحافظة عليه ووعد الوزير بأنه سينظر فى أمر خروجه من البلد[3] وترك الوزير إلى داره وهو يفكر إلى أين يقصد وجميع الطرق قد اكتظت بأعدائه، وبات ليلته يفكر دون أن يهتدى إلى رأى يعمل به، وفى الصباح ذهب إلى الوزير وقال له إنه ليفضل أن يقتل فى شيراز أو يخرج منها قسرا مكبلا بالقيود والأغلال من أن يسير فيغتاله أحد السوقة فى الطريق[4]، وخير الوزير بين هذين الأمرين وبين أن يؤجله الوزير أياما ليعاود بيته ويحصل على نفقات سفره فيخرج خفية حتى لايشعر بخروجه أحد، فرضى الوزير بهذا العرض الأخير على أن يكون الأجل أسبوعا واحدا، وهنا نرى دهاء المؤيد وحذره فقد كان رجلا يعرف كيف يقهر خصمه بمكره وسياسته، نراه قد أجاب الوزير بقوله: «سمعا وطاعة...» إلا أن فى الأمر

---

(١) نلاحظ أن الفاطميين لم يتفقوا مع جمهور أهل السنة فى الصيام برؤية الهلال ورووا أن قوله صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» إشارة من النبى إلى على بن أبى طالب وأمر من النبى أن يصوم المسلمون اذا رأوا عليا يصوم ولذا ظهر عند الفاطميين موكب ركوب الخليفة فى أول رمضان، وشهر رمضان عند الفاطميين ثلاثون يوما دائما ولذا اعتبروا السنة القمرية ٣٥٤ يوما دائما وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة أى أن الشهور العربية شهر تام يليه شهر ناقص [راجع كتاب عيون المعارف وكتاب المجالس المؤيدية فى فصل مناظرة المؤيد مع العلوى والرسالة اللازمة لشهر الصوم للحكيم الكرمانى].

(٢) السيرة ص ٧.

(٣) السيرة ص ٩.

(٤) السيرة ص ١٠.

حالة لايسعنى إهمال ذكرها والاستئذان فى بابها. قال الوزير وما هى؟ قال: معلوم ما بينى وبين الديلم من الأحوال الممهدة والأسباب المؤكدة وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يباكرنى شاكيا. وموردا جملة أمره وتفصيله علىّ. ولاشك فى أنهم إذا عرفوا جلية أمرى ضجوا وصرخوا وقاموا وقعدوا فلا يكون ذلك منسوبا إلىّ ولا معتدا بجناية علىّ... فطلب إليه الوزير أن يمتنع عن لقاء الناس هذا الأسبوع فوعده المؤيد بذلك وخرج. فأغلق بابه ومنع الناس عن لقائه. ولكن جمهور شيعته تحدثوا بذلك كله واجتمعوا فى سوق الدواب بشيراز[1] مظهرين سخطهم مهددين السلطان بثورة دامية لحماية أنفسهم ودينهم. وخشى السلطان مغبة الأمر فطلب من الوزير العادل أن يتدارك الأمر. فاضطر الوزير إلى استدعاء القاضى السنى والقصاص وهددهم جميعا بالقتل والمصادرة إن تعرضوا للشيعة واستدعى الديلم وسألهم عن سبب تجمهرهم وثورتهم فأجمعوا على أن نفى المؤيد هو سبب ذلك كله فأنكر الوزير قصة النفى «لأن المؤيد أجل قدرا وأبسط حشمة أن يتناول بشىء من ذلك[2]» ثم سمح للمؤيد بعد يومين بأن يفتح بابه للزائرين وأن يعقد مجالسه كالعادة. ولكن المؤيد كان حذرا من الوقوع فى شرك ينصب له فاضطر إلى نقل بعض كتبه وأوراقه إلى مكان لم يذكره لنا وجلس مستسلما لما تأتى به المقادير فكان يسمع بين الفينة والفينة إشاعات عزم أهل السنة على الفتك به ففكر فى الخروج إلى الأهواز[3] وأن يقيم بها حتى يقضى الله أمره واتفق أن السلطان أبا كاليجار كان يستعد للسفر إلى الأهواز[4] أيضا فظن المؤيد أنه يستطيع السير فى صحبة الركب ولكنه فوجىء بأمر الوزير يمنعه من السفر فى ركب السلطان[5] فذهب المؤيد إلى الوزير محتجا على هذا التصرف فاعتذر إليه الوزير بأن السلطان لا يطيق سماع ذكر المؤيد ونظر المؤيد حوله. فإذا به وحيد قد سافر أكثر شيعته من الديلم فى ركب السلطان وهم يعتقدون أن المؤيد معهم وخشى المؤيد أن يصاب بمكروه فى هذا البلد. وبينما كان يفكر فى أمره علم بوجود قافلة على وشك المسير إلى بسا[6] فأسرع ورافق المسافرين

---

(١) كان هذا الموضوع يختص بالديلم إذا شغبوا (السيرة) ص ١١.

(٢) السيرة ص ١٣.

(٣) وكان للديلم بها مجمع (السيرة) ص ١٤

(٤) السيرة ص ١٤.

(٥) السيرة ص ١٥

(٦) موضع على بعد أربع مراحل من شيراز وأهلها من أهل السنة ولكن كان بها بعض الديلم (ص ١٦ السيرة المؤيدية).

إليها وهناك أخذ يبنى مشهدا مختصا بالشيعة وأهل دعوته ولم يكن بها مبان للشيعة قبل ذلك[1] واجتهد معه الديلم فى بناء هذا المسجد فرماه الناس بالسحر لأنه استطاع أن يسخر الديلم الجبابرة كما سخر سليمان الجن.

المؤيد وأبو كاليجار[2]

عاد السلطان أبو كاليجار إلى شيراز فى نفس الوقت الذى عاد المؤيد فيه إليها، ولكن المؤيد لم يكن مطمئنا من وجوده فى هذا البلد بل كان خائفا يترقب، وكان أن خرج ذات يوم إلى طريق القوافل لاستقبال صديق من الديلم فى طريقه من الأهواز، وكان مع الركب أحد ندماء السلطان المقربين إليه، فسار المؤيد معه طول طريقه إلى شيراز يبثه شكواه وطلب إليه أن يحدث السلطان فى أمره حتى يقلع عن اضطهاده، وبينما المؤيد والنديم فى هذا الحديث إذ جاء رسول من قبل السلطان يدعو هذا النديم لمقابلة السلطان، وعاد الرسول إلى السلطان يحدثه أن النديم كان يساير المؤيد ويتحدث إليه، فلما أن مثل بين يدى السلطان سأله عما كان بينه وبين المؤيد من حديث: فأورد إليه الرجل ما وعته ذاكرته، فحمله السلطان رسالة إلى المؤيد على أن يؤديها له خارج منزله، فقابله المؤيد خارج المدينة بعيدا عن الرقباء وأبلغه النديم رسالة السلطان وهى أن المؤيد يسعى بالفساد فى المملكة حتى قيل عنه إنه يريد البروز إلى المسجد لإقامة الصلاة والخطبة باسم المستنصر الفاطمى ولولا ذلك لشمله السلطان بعنايته. لم يشأ المؤيد الا أن يجيب عن هذا كله بل نرى فى جواب هذه الرسالة شيئا من شجاعته وإقدامه مع حذر وتلطف فى الحديث إذ قال[3]: «إن هذا الأمر الذى أتولاه ما أنا أبدعته ولا فى أيامى أحدثته فإنه قديم تقضت عليه السنون واندرج فى معرفته ومشاهدته الملوك ولو علم أنه يحدث فسادا لما نامت عيون فحولة بنى بويه عن إحالته وتغييره، ولما كان أكثرهم يؤثره لنفسه دينا لقى الله تعالى به، ولكن المقبحين قبحوا الصورة بحضرة الملك ولو أنه استقصى الأمر لوجد قدماءه أكثرهم بذلك دائنين» وأنكر المؤيد أن يكون قد عزم على الخطبة فى المسجد باسم المستنصر وإن كان فى صميم نفسه يرجو أن يتم هذا الأمر فى أيام الملك أبى كاليجار. وأتبع هذا بأن السلطان اعتاد أن يستمع لخصوم

---

(١) السيرة ص ١٧.

(٢) السيرة ص ١٩ وما بعدها.

(٣) السيرة ص ١٩ - ١٩.

المؤيد وكان يجب أن يعرف أقواله أيضا حتى يميز بنفسه بين القولين. ونفذ النديم بهذا القول إلى السلطان. ثم عنّ للمؤيد أن يكتب رسالة إلى السلطان فنمق خطابا أصدره إليه فأعجب أبو كاليجار[1] بأسلوب المؤيد وبيانه فطلب السلطان إلى الوزير أن يستدعى المؤيد ويكرمه على أن يستمر المؤيد فى دعوته دون أن يجهر بها أمام العامة.

استطاع المؤيد بدهائه وحجته أن يكسب عطف السلطان أبى كاليجار، وأن يبقى فى شيراز يقيم مراسم دعوته. ولكن نفسه طمحت إلى لقاء السلطان وإلى أن يجعله يعتنق الدعوة الفاطمية ولم يكن السلطان قد رأى المؤيد من قبل. وسنحت له الفرصة، ذلك أن المؤيد وقف فى الصحراء[2] معترضا ركب السلطان فى طريقه للصيد، فلما دنا منه السلطان نزل المؤيد وخضع ودعا له. فلما سأل السلطان عنه سر به وأمر بأن تقدم له دابته. ولما عاد السلطان من الصيد تلقاه المؤيد أيضا فى الطريق. فكان نتيجة ذلك أن أمر السلطان بأن يحضر المؤيد المجلس السلطانى متى شاء. فتردد المؤيد على المجلس وأخذ يتقرب إلى السلطان، والسلطان يزداد إعجابا به ومحبة له. وطلب إليه أن يناظر مخالفى دعوته كتابة حتى يتسنى للسلطان أن يقرأ بنفسه هذه المناظرات ويميز بينها. فاستطاع المؤيد بقوة حجته وبلاغته أن يقهر خصومه حتى اضطر السلطان إلى أن يقول له «إنى أسلمت نفسى ودينى إليك وإننى راض بجملة ما أنت عليه[3]» وهكذا دخل السلطان أبو كاليجار الدعوة الفاطمية دون أن يعلن ذلك فى الناس أو أن يدعو للخليفة الفاطمى على المنابر. واتفق السلطان والمؤيد على أن يجتمعا مساء كل يوم خميس للمذاكرة فكان السلطان يسأل المؤيد عن شئون المذهب. وحدثنا المؤيد عن إجابته بقوله «وكنت أجيب عنه جوابا يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك فربما حرك رأسه يعنى أنه جيد فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله، قصدا منى لتندمه على فرطاته وإقامة الحجة عليه بكون الحق فيما يحسبه ضلالا والرشد فيما كان يظنه غيا[4]» كان يبدأ مجالسه مع السلطان بقراءة شىء من القرآن الكريم ثم بباب من كتاب «دعائم الإسلام» للقاضى النعمان ثم يسأله السلطان عما غمض عليه من أمر المذهب ويختمها بالحمد والدعاء للخليفة الفاطمى ثم لأبى كاليجار.

---

(١) السيرة ص ٢٠.

(٢) السيرة ص ٢١.

(٣) السيرة ص ٦١.

(٤) السيرة ص ٦٢.

استمر المؤيد على هذا المنوال فى علاقته مع السلطان وهذا يزداد إعجابا به ومحبة له. فلما وثق المؤيد من هذا كله أخذ فى تهجير الشراب والخلاعة إلى السلطان. فكان ذلك سببا فى غضب ندماء السلطان على المؤيد ومحاولتهم الإيقاع به حتى لا يستأثر به السلطان دونهم وكان أشدهم حقدا على المؤيد ادعى للسلطان إنه كان قد اعتنق الدعوة الفاطمية ولكنه عاد فتحول عنها ورمى الفاطميين بالكفر والإلحاد. فتحدث السلطان إلى المؤيد بهذا القول أمام النديم فاضطر المؤيد أن يدافع عن دينه وأن يقيم البرهان على كذب النديم وافترائه وبذلك اتخذ المؤيد من هذا النديم - الذى لا نعرف اسمه - خصما عنيدا[1] جعل يلقى المؤيد بكل مكيدة ويرميه هو والمستنصر الفاطمى بكل فاحشة. واشتدت الخصومة بين المؤيد وندماء السلطان أبى كاليجار حتى قامت بينهم منافرة قوية أمام السلطان. فاضطر المؤيد أن يخاطب السلطان بقوله «ما ينجينى منك لا سخط ولا رضى. فقد كنت قبل المعرفة قاصدا لروحى بلا بصيرة ولا بينة وكان يتجافى جنبى عن المضجع رهبة من بغتاتك وخوفا من سطوتك فلما سهل الله تعالى وأيقظك من رقدتك وجمع بينى وبينك ففعلتُ بك ما لم يفعل بك والدك صرت لا أتخلص من أذى من هم حولك ولقائهم إياى بالخدع والمخاتل»[2] فكان هذا القول سببا فى ازدياد الوشايات ضده إذ هول الندماء الأمر فى نفس السلطان مدعين أن المؤيد خاطب السلطان بما لم يخاطب بمثله سلطان من قبل. ومازالوا بالسلطان حتى أظهر مودته. فأمر بقطع المجالس الليلية من المؤيد مدة طويلة وعوتب المؤيد على ما تفوه به فاعتذر المؤيد بمثل ضربه عن ابن الإسكندر[3] فكان هذا الحادث سببا فى أن ينظم أرجوزته التى سماها «المسمطة[4]» وكان ذلك حوالى عام ٤٣٣ هـ أى فى السنة التى توفى الوزير العادل وتولى الوزارة مهذب الدولة أبو منصور هبة الله بن أحمد الفسوى[5] وكان هذا الوزير الجديد يبغض المؤيد ومذهبه وكان يتوهم أن المؤيد إنما يسعى لتولى الوزارة فقوى بذلك أعداء المؤيد وأكثروا فى الطعن عليه.

---

(١) السيرة ص ٦٤.

(٢) السيرة ص ٦٧.

(٣) السيرة ص ٦٨.

(٤) السيرة ص ٧٠.

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٤ حوادث سنة ٤٣٣هـ.

نكبة المؤيد[1]

توجه المؤيد إلى الأهواز واحتوى بطريق لا نعلمه على مسجد مهدم كان يأوى إليه بعض رجال الصوفية فجدد عمارة هذا المسجد وكتب على محرابه أسماء النبى وعلى والحسن والحسين حتى اسم محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ووصلها بأسماء الخلفاء الفاطميين من المهدى إلى المستنصر[2] بالمذهب على لوح ساج ثم أقام الأذان «بحى على خير العمل» ولم يكتف بهذا بل طلب ممن حضره من الديلم أن يقييموا صلوات الجمعة مشفوعة بالخطبة للمستنصر الفاطمى صاحب مصر[3] قال المؤيد «فلما كان يوم الجمعة أمرت عشرين نقيبا يصعدون إلى سطح المسجد ويؤذنون «بحى على خير العمل» فقامت ضجة فى المدينة شغلت الناس عن المسجد الجامع وفاض الديلم على الموضع فيضا وكان الأمر جاريا على هذه المثالة فى كل جمعة والدنيا تموج بأهلها خوضا وكلاما كيف كان سبب هذا وكيف تم»[4]؟ وهذا ما أشار إليه المؤيد فى ديوانه مفتخرا بجرأته وإقدامه:

وأنشـأت فـى داره دعـوة بذكـرك مكشوفـة ظاهـرة[5]

وقوله:

سـل بقعـة الأهـواز عـن فِعلـى تُجبـك معـاهـد[6]

كتب قاضى الأهواز[7] ابن المشترى إلى الخليفة العباسى ببغداد ينعى خلافة العباسيين وطلب إلى الخليفة أن يصانع أبا كاليجار وأن يقبض على المؤيد وأن يهدد أبا كاليجار إن لم يسلم المؤيد إلى رسول الخليفة العباسى.

---

(١) السيرة ص ٨٠ وما بعدها.

(٢) نلاحظ أنه لم يذكر أسماء الأئمة المستورين.

(٣) السيرة ص ٨١.

(٤) السيرة ص ٨١

(٥) ق ٣٦ – ٤١.

(٦) ص ٣٥ – ٤١.

(٧) هو أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور بن المشترى قاضى خوزستان وفارس وكان شافعى المذهب توفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة للهجرة (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦٠)

علم المؤيد بهذا كله كما تطايرت الإشاعات بعد قليل بوصول ابن المسلمة[1] إلى البصرة رسولا من قبل الخليفة العباسى إلى أبى كاليجار. وتناقل الناس سبب هذا الرسول فخاف هذا من أن يصيبه مكروه من شيعة المؤيد فاضطر ابن المسلمة إلى أن يكاتب المؤيد على لسان بعض الرؤساء نافيا عن نفسه ما أرجف به الناس وزاعما أنه إنما ورد إلى البصرة لتعهد إقطاع الخليفة. ولكن المؤيد فطن إلى خديعة ابن المسلمة وكذبه ولذلك أطلق عليه فى ديوانه لقب «ابن دمنة» وعلم المؤيد أيضا أن ندماء أبى كاليجار اغتنموا هذه الفرصة للإيقاع بعدوهم فاضطر المؤيد إلى الإسراع بالعودة إلى شيراز فاراد السلطان أن يتدبر الأمر حتى لا يثور الديلم وشيعة المؤيد ولاسيما أن ابن المسلمة رسول الخليفة العباسى كان فى طريقه إلى شيراز أيضا. فاقترح النديم عدو المؤيد أن يعقد السلطان مناظرة بين المؤيد وشريف علوى على مذهب الزيدية على أن يعد النديم قوما يقطعون على المؤيد خاطره حتى يغضب ويخرج عن أدب المناظرة فيكون حجة عليه فى الوضع منه. وسلامة من ثورة أتباع المؤيد لأن المناظر له علوى مشهور بالسداد والتقوى معا[2] فأعجب الملك بهذا الرأى وأرسل إلى المؤيد يدعوه لمناظرة العلوى واتفق أن كانت المناظرة فى أوائل شهر رمضان[3] فبدأ المؤيد المناظرة بأن قص على العلوى قصة أنبه فيها لأن المؤيد كان يدافع عن العلويين ويعمل على تأييد سلطانهم بينما كان يمالىء خصوم العلويين ويناظر من يدافع عن عقيدتهم. ولكن السلطان أمرهما بترك اللوم والتأنيب ورغب أن تكون المناظرة فى موضوع الصيام أهو برؤية الهلال كما قال جمهور أهل السنة والجماعة أم بغيره كما قال الفاطميون[4]؟ وتجلت فى هذه المناظرة العنيفة حجة المؤيد وفصاحته مما أقحم به مناظره العلوى وأخرجه من الميدان بين ضحك الملك وسخرية الحاضرين حتى من كان خصما للمؤيد[5] وفشل النديم فى مؤامرته هذه فازداد غضبا على المؤيد وأكثر من وشاياته ضده. فادعى أن المؤيد أغرى جمهور الديلم للبطش به وأن الديلم تناولوه بألسنتهم ومجالسهم بالقبيح. وكان السلطان أبو كاليجار بين أمرين

---

(١) هو أبو القاسم على بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء (ص ٩ تاريخ سلجوق . ج ٥ ص ٦ النجوم الزاهرة. ج ١٢ ص ٥٤ مرآة الزمان وص ٣٩٦ الفخرى).

(٢) حاولنا معرفة هذا العلوى فلم نوفق.

(٣) أرجح أن ذلك كان عام ٤٣٥ هـ لأن المؤيد حدثنا فى سيرته أنه عاد إلى الأهواز بعد ذلك وقابل القاضى ابن المشترى والقاضى توفى سنة ٤٣٦هـ.

(٤) عيون المعارف ص ٣٣٧.

(٥) السيرة ص ٨٧.

كان يريد أن يرضى الخليفة العباسى وفى الوقت نفسه «كان يخاف الله فى المؤيد ويحتشم من فعله به بلا ذنب ولا جرم... ومن بعد أن عاهد الله على حفظ المؤيد والممانعة عنه»[1] غير أن كفة الهوى كانت أرجح من كفة العقل إذ قرر السلطان أن يصانع الخليفة العباسى ولو كان فى ذلك القضاء على المؤيد. وقامت بشيراز ضجة بحديث المؤيد وذكره وتباشر أعداؤه فى كل بقعة وأرسلت الكتب إلى البلدان المجاورة بالتهنئة برجوع السلطان عما كان عليه وأن الملك قتل المؤيد. وسمع المؤيد واحدا يهنىء الآخر بأن المؤيد فعل به كذا حتى البغلة التى كان يركبها قطعة قطعة فقال المبشر: «ناولنى يدك أبوسها» فقال الآخر «بل هات صدرك فامسحه على صدرى لتسر قلوبنا التى فى الصدور بانكشاف هذه الغمة عن الإسلام والمسلمين»[2].

وكان من عادة السلطان أبى كاليجار أن يذهب إلى المسجد الجامع كل يوم جمعة من رمضان فأراد النديم أن يقذف المؤيد بآخر سهم فى كنانته. فجمع عددا كبيرا من وجوه المدينة الذين نقموا على المؤيد وطلب إليهم جميعا أن يفرقوا أتباعهم فى السوق وأن يصطفوا يوم الجمعة من باب دار الملك حتى المسجد الجامع ويضجوا بالشكر والدعاء للملك الذى كفى الإسلام عادية المؤيد. وهنا وصف لنا المؤيد ما كان فى هذا اليوم بقوله «فلما كان يوم الجمعة سمعت فى منزلى ما لم أشبهه إلا بنفخ الصور حقيقة. وما حسبت إلا أن السيوف تأخذنى من أقطارى والنار تحرق إلى جوانب دارى وقعدت مستسلما لأمر الله سبحانه وتعالى وحكمه... فلو لم أقاس من الشدائد غير تلك الساعات لكان كثيرا»[3] ووصف ذلك فى ديوانه بقوله:

وهاج علىَّ الناصبون بأسرهم تموج بهم شيراز هيج ذوى الوتر

وأجلب من بغداد طاغوت دينهم عَلىَّ بخيل الشك والشرك والكفر

وصار دمى يغلى لنذرهم دمى وأحشاؤهم تغلى ببغضى غلى القدر[4]

وبعد الصلاة أرسل السلطان إلى المؤيد وطلب إليه أن ينجو بنفسه إلى أى صوب شاء وبعد يومين أرسل السلطان مرة أخرى بخطاب ورد إلى السلطان من الخليفة العباسى بالوعيد

(١) السيرة ص ٨٩.

(٢) السيرة ص ٩٢.

(٣) السيرة ص ٩٣ و ٩٤.

(٤) ق ٥٣ - ١٤ و ١٥ و ١٦.

والتهديد والقدح فى نسب الفاطميين وأن دعوتهم كانت فى الخفاء والستر وأن أحدا لم يقدم على مثل ما أقدم عليه المؤيد وعلى السلطان أن يسلم المؤيد إلى رسول الخليفة وإلا اضطر الخليفة إلى أن يستنصر بطغرلبك التركمانى[1] فوعده المؤيد بالخروج من المدينة ولكن النديم أشار عليه بأن يحبس المؤيد فى داره ولا يسمح له بالهرب خشية أن يثور الديلم ويشتد الفساد. فاستمع السلطان إلى هذه النصيحة وأمر المؤيد بأن يغلق عليه داره ولا يخرج منها حتى يرى الملك رأيه[2].

وبعد أيام قليلة قدم ابن المسلمة رسول الخليفة إلى شيراز وسلم هدية الخليفة إلى أبى كاليجار ثم أرسل إلى المؤيد بأن يترك مذهبه ويعدل عن رأيه حتى يفوز برضاء الخليفة العباسى ويستعيد مكانته فى بلاط السلطان أبى كاليجار[3] فأجابه المؤيد: إن الأمر الذى أنا بصدده أمر دعانى إلى التدين به. واعتقاد اكتساب مرضاة الله فيه وليس اعتقادى فى هذا الإنسان الذى هو بمصر وقلت إنه لا يضرنى ولا ينفعنى كاعتقادك فى من أرسلك ولست بالذى يقف موقف المعتذر إليه ولو قتل ألف قتلة. ولم يكن فى خدمة الملك فائدة فيصبو قلبى إلى الرجوع إلى تلك الفائدة[4]. وبالرغم مما أظهره المؤيد من شجاعة وجرأة فى جوابه هذا فإنه كان يخشى أن يقبض عليه وأن يسلم فى يد ابن المسلمة حتى ترك هذا شيراز ومع ذلك فكان خوف المؤيد شديدا من المكايد التى كانت تنصب له ومن بغتات العوام ولاسيما وقد ثبت فى نفس جمهور الشعب أن السلطان خصم للمؤيد. واستمر المؤيد على هذا النحو من حياة الاضطراب والخوف زهاء سبعة أشهر قال المؤيد «أبل بالدم ريقى ولا أعقل شيئا من أمرى وأنا قاعد فى كن بيتى[5]».

هرب المؤيد من شيراز[6]

شاء السلطان أبو كاليجار أن يرحل إلى الأهواز فى عامة العسكر، ورأى المؤيد أنه فى مركز دقيق إذ كان لا يأمن غدر خصومه به. فاستأذن السلطان فى السير مع الركب فلم

---

(١) السيرة ص ٩٥.

(٢) السيرة ص ٩٦.

(٣) السيرة ص ٩٧.

(٤) السيرةص ٩٧ و ٩٨.

(٥) السيرة ص ٩٩.

(٦) ص ١٠٢ وما بعدها.

يجب طلبه فأعمل فكره فى الهرب بحيلة ومكيدة، فأشاع بين أصحابه أنه مسافر مع الجماعة متنكرا، وأشعر المسافرين إلى الأهواز أنه مقيم بشيراز وإنما يحمل معهم شيئا من رحله ودوابه وغلمانه وتنكر المؤيد فى زيه واشترى غلامين مجهولين وسلك بعض المجاهل. فكان يكترى من مرحلة إلى أخرى دابة يركبها، وتحمل خلال ذلك من المشى وخوض الأودية والصبر على البرد وكثيرا ما كان يحل بأقوام لاكته ألسنتهم وسبوه أقبح سب دون أن يشعر به أحدهم. قال المؤيد «وحسبك بمن يقطع طرقات هذه سبيلها ويسمع بنفسه فى نفسه مثل تلك العظائم[1]».

وصل المؤيد جنّابه فى يوم مطير فدخل مسجدا ملتجئا إليه، فقابله رجل عرفه فتقرب إلى المؤيد ونظر إلى هيئته فعلم أنه هارب، فعرض عليه نفسه وماله فشكره المؤيد وطلب إليه ألا يفشى سره، وجاء إنسان علوى وذكر للمؤيد أنه رآه وهو يبنى مسجد الأهواز فأنكر المؤيد معرفة هذا المسجد وزيارته للأهواز إلا جوازا فى طريقه فصرح له العلوى أن أهل المدينة قالوا إنك المؤيد! فأجابه المؤيد «قد سمعت باسم هذا الرجل أنه إنسان كبير الشأن متملك لقادة الديلم عظيم المنزلة إلا أنى ما رأيته، وقد يشبه الناس الناس وربما يشبهنى به المشبه[2]» فذكر له العلوى أن بعض الناس أشاروا على والى جنابه أن يقبض عليه، وهم الوالى بالفعل أن يعوق المؤيد عن السفر ولكن العلوى نصح الوالى أن يمتنع عن ذلك. ودخل على المؤيد ثالث حدثه بأن أهل البليدة أكثروا الخوض فى ذكره واحتاروا فى أمره فمن قائل إن هذا المتنكر هو ظهير الدين صاحب البصرة[3] قد أفلت من سجنه وهو فى طريقه إلى البصرة وقائل إنه المؤيد فأنكر المؤيد أنه أحد الرجلين إنما هو علوى عابر سبيل وطلب المؤيد من الرجل أن يبحث له عن حمار يكتريه حتى يخرج من البلدة حالا فغاب الرجل عنه قليلا وعاد إليه ومعه المكارى دون الحمار، ووعده المكارى بالحضور صباح اليوم ولكنه لم يعد فأيقن المؤيد أن الوالى منعه من الرحيل فأرسل فى طلب المكارى فعاد إليه قبيل غياب الشمس ومعه الحمار، فسار المؤيد وهو لا يكاد يصدق بنجاته. وسار مدة شهر كامل سفرا فى مقاساة شظف العيش واشتمالا على ملبس الروع[4] حتى دخل

(١) السيرة ص ١٠٣.

(٢) السيرة ص ١٠٤.

(٣) السيرة ص ١٠٧.

(٤) السيرة ص ١٠٧

منزله بالأهوز قبل أن يصلها الملك إذ كان الملك يعرج فى طريقه على المنتزهات حتى أنه قام فى بلدة سابور[1] شهرا وبلغ الملك وهو فى طريقه إلى الأهواز أن المؤيد خرج من شيراز وأنه مع الركب متنكرا فخشى الملك مغبة هذا الأمر وأقام العيون فى خيام الديلم ليعلم أين المؤيد وكان يتأمل الراكبين واحدا بعد واحد ويكشف وجوه الملثمين عساه يعثر على المؤيد ولكن خاب سعيه.

المؤيد فى الأهواز[2]

كشف المؤيد القناع عن نفسه بعد أن وصل إلى الأهواز وقابل شيعته وزائريه، وبلغ الملك وصول المؤيد إلى الأهواز واجتماع الناس به فامتلأ قلبه غيظا وحنقا، ووجد ندماء الملك أعداء المؤيد أن الفرصة سانحة للقضاء على المؤيد فأبلغوا السلطان أن المؤيد خالف أمره وسابقه إلى الأهواز ليثير بها الفتن ويغرى الديلم بالعصيان، واستمع الملك إلى هذا كله فازداد حقدا وأقسم لينتقمن من المؤيد، وكان بين حاشية السلطان من كان يحب المؤيد فكاتبوه بهذا كله واستحلفوه بأن يترك الأهواز إلى حلة منصور بن الحسين[3] أحد أمراء البوادى حتى تهدأ ثائرة الملك. فاضطر المؤيد إلى أن يستمع لنصحهم ورحل إلى حلة منصور فأكرمه أميرها منصور بن الحسين وسأله عن حاله فبسط له المؤيد قضيته فوعده منصور بأنه سيسعى لإزالة ما فى نفس أبى كاليجار وكادت تنجح وساطته لولا وفاة أبى طاهر[4] البويهى ملك بغداد وطمع أبى كاليجار فى ملك بغداد ولا يأتى هذا إلا برضاء الخليفة العباسى عن أبى كاليجار، فصار أمر الصلح مع المؤيد مستحيلا، ومكث المؤيد نحو سبعة أشهر فى حلة منصور[5] فضاق صدره وعزم على أن يعود إلى الأهواز مهما كلفه ذلك وكاشف أمير الحلة بما عزم عليه وأشيع عنه ذلك، فإذا بعتاب جاء من أبى كاليجار إلى الأمير وفيه... قد عرفت صورة أبى نصر أحسن الله توفيقه وإننا كل يوم فى صداع من جهة الديلم باحتجاجات

(١) على بعد ثلاث مراحل من شيراز.

(٢) السيرة ص ١٠٨.

(٣) هو منصور بن الحسين الأسدى الذى ملك الجزيرة الدبيسية بجوار خوزستان سنة ثمان عشرة وأربعمائة للهجرة وقطع خطبة جلال الدولة البويهى وخطب الملك أبى كاليجار (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠).

(٤) الأمير جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بويه ولد سنة ٣٨٣هـ ومات سادس شعبان سنة ٤٣٥هـ (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢٥ و ص ٣٢٠ م تاريخ مختصر الدول) ولكن الذى فى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧ أنه مات خامس شعبان سنة ٤٣٦هـ.

(٥) ص ١١٠.

باطلة بتشبثون بها ظاهرا وهو مغزاهم وغرضهم منها باطنا. ثم إنه قامت رغبتنا فى بغداد وامتلاكها وليس يكاد يتم الغرض فيه إلا بالمجلس الخليفى الإمامى إذا استقر به العلم أن هذا الانسان مقيم بفناء حضرتنا على جملته كان ذلك رَدْما في وجه ما نؤثر بلوغه وحاجزا بيننا وبينه. وقد انتهى إلينا أنه على معاودة الأهواز فالله الله أن توجده سبيلا إلى ذلك فانه إن عاد وقعت فتنة نصلى بنارها[1] ولكن المؤيد لم يعبأ بهذا القول وصمم على العودة إلى الأهواز ظاهرا أو متنكرا مهما كلفه ذلك ولكن بلغه أن المستنصر الفاطمى أرسل خلعا وألقابا إلى قرواش بن المقلد[2] صاحب الموصل والكوفة والأنمار فرأى المؤيد أن يذهب لزيارة قبر الإمام على وقبر الحسين بن على ثم يواصل سيره إلى الموصل حيث قرواش وأحضر له منصور بن الحسين الدواب التى حملته فى سفرته هذه.

اتجه المؤيد إلى قرواش بالموصل ظنا منه أنه سيساعده فى نشر الدعوة الفاطمية فى البلاد ولكن هذا الأمير كان مضطربا أشد الاضطراب. كان يميل إلى العباسيين إذ أغدقوا عليه نعمهم. وكان يخطب للفاطميين بمصر إذا وهبوه أموالهم وألقابهم وخلعهم لم يستقر على حال واحد لا خوفا من أحد الطرفين ولكن استهانة بكليهما وطمعا فى الألقاب والهدايا فلما وجده المؤيد على هذا النحو من التقلب اضطر إلى أن يتركه فى تخبطه وأن يتجه إلى مصر حيث إمامة المستنصر لدين الله الفاطمى.

(١) ص ١١٠.

(٢) هو أبو المنيع قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل ولقبه الخليفة القادر معتمد الدولة واستماله الحاكم الفاطمى فخطب قرواش ببلاده للفاطميين ثم رجع عن ذلك وتوفى سنة ٤٤٣هـ (النجوم ص ٤٩ ج ٥ – ص ٣١١ تاريخ مختصر الدول)

الفصل الثانى

المؤيد فى مصر[1]

سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين كان عنده أمل فيما سيلقاه من نعيم وتقديم إذ كان وحيدا فى عمله وحجته، خدم الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه، وكان بجانب أمله هذا يائسا أشد اليأس لأنه كان يعلم أن إمامه غير متصرف فى شئون بلاده وأن هنالك قوة أخرى كانت تدير البلاد تلك هى أم الخليفة المستنصر وسنرى كيف خاب أمله وتغلب يأسه. لم يثبت لنا المؤيد ولا غيره من المؤرخين والكتاب متى دخل المؤيد مصر ولم يحددوا تاريخ دخوله مصر غير أن المستشرق إيفانوف صاحب المرشد إلى أدب الإسماعيلية قال إن المؤيد جاء مصر فى نفس العام الذى وصلها فيه ناصرى خسرو أى عام ٤٣٩ هـ ولا أدرى من أين أتى بهذا التاريخ؟ أما الدكتور همدانى فزعم أن المؤيد وصل مصر سنة ٤٣٠ هـ قبل وصول ناصرى خسرو بتسع سنوات والظاهر أن الدكتور همدانى لم يكن دقيقا فى تحديد هذا التاريخ لأننا علمنا أن المؤيد كان بحلة منصور فى شعبان عام ستة وثلاثين وأربعمائة قبل أن يفكر فى زيارة مصر. ومعنى هذا أن المؤيد جاء مصر بعد عام ٤٣٦ هـ وحدثنا المؤيد أنه لقى أبا سعيد التسترى بمصر والوزير الفلاحى وذكر المؤرخون أن أبا سعيد التسترى قتل عام تسعة وثلاثين وأربعمائة وإذن فالمؤيد جاء إلى مصر بين سنة ست وثلاثين وأربعمائة وسنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وعقب وصوله أدخل توا إلى مقر الخلافة[2] ولكنه لم يتمكن من مقابلة الإمام المستنصر بل الوزير الفلاحى[3] الذى أكرمه ورحب بوصوله وأمر بأن تجهز له دار وصفها المؤيد بقوله «فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالإكثار ولا من الإقلال[4]» وعلم ممن حوله أن المتصرف فى البلاد كلها هو أبو سعيد التسترى فذهب المؤيد ثانى يوم لزيارة هذا الرجل الذى بالغ فى إكرام المؤيد وأحسن لقاءه ووهبه الأموال والخلع ثم زار القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن نعمان وكان يتولى القضاء والدعوة معا ولذا كان يخشى من حضور المؤيد إلى مصر خوفا من أن ينافسه المؤيد، فكان القاسم يعمل دائما على إبعاد المؤيد.

(١) السيرة ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) السيرة ص ١٢١.

(٣) هو الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف قتل سنة ٤٤٠هـ وكان أول أمره يهوديا فاسلم واتصل بالدزبرى قائد الفاطميين بالشام فخدمه ثم خافه فعاد إلى مصر وخدم الجرجرائى الوزير فلما توفى هذا استوزر المستنصر الفلاحى

(٤) السيرة ص ١٢١.

أخذ المؤيد يتردد على أبى سعيد التسترى وكان التسترى يعده ويمنيه، ونصحه ألا يتقرب إلى أحد من وجوه المصريين حفظا لمكانته فى النفوس، ورغب التسترى فى أن يختص بالمؤيد وبلغ ذلك جماعة من المصريين فحسدوا المؤيد ووشوا إلى التسترى بما أثبته المؤيد بقوله «كيف تطوع لك نفسك أن تأخذ هذا الرجل الأعجمى المقام الذى أنت مخصوص به، وما يؤمنك أنك إذا أدخلته أخرجك وإذا قدمته أخرك وهو أبسط منك لسانا وأقوى جنانا وهو يدل بعزة الإسلام والتخصص بالدعوة والخدمة[1]» فكان لهذا الكلام أثره فى نفس التسترى الذى قلب للمؤيد ظهر المجن فكان يقابله بكل جفاء وغلظة واشتد الأمر على المؤيد حتى أنه أصيب بالإغماء فى ليلة من ليالى رمضان كان يتناول فيها الطعام عند الوزير الفلاحى.

لم يستطع المؤيد أن يقيم فى مصر أكثر من ذلك، ففكر فى الرحيل منها وذهب إلى التسترى يحدثه بما عزم عليه فظن التسترى أن المؤيد غير جاد فى هذا القول. ولذا سمح له التسترى بالرحيل ووعده بأن يرسل الكتب إلى الأمراء فى الطريق ليحسنوا إلى المؤيد ولكنه رأى المؤيد يستعد للرحيل حقا فأرسل التسترى إليه يمنعه من السفر، فاضطر المؤيد إلى أن يغلظ للتسترى القول وأن يظهر ما فى نفسه من الحنق والغيظ وأن يكشف له القناع عما أراد التسترى أن يخفيه فذكر للتسترى وهو فى ثورة الغضب أنه لم يأت مصر طمعا فى مال أو جاه إنما جاء لداعى الدين وللقاء الإمام وحده دون الوزراء والوجوه ولكنه وجد الإمام محجورا عليه وأمره ليس بيده، فاشتد حنق التسترى على المؤيد ولكن المؤيد كما كان فى فارس لم يأبه بوعيد ولم يعبأ بتهديد فأخذ يكيل للتسترى السباب فى المجالس والأندية مدة طويلة حتى قتل التسترى عام ٤٣٩ [2].

طابت نفس المؤيد بعض الشىء وطلب من الوزير الفلاحى أن يتشرف بمقابلة الإمام فساعده الفلاحى إلى ذلك حتى تمكن المؤيد من المثول بين يدى الخليفة فى آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثين وأربعمائة[3]. ووصف المؤيد مقابلته الأولى هذه للخليفة المستنصر فقال: «وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية، فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العبرة وتمثل فى نفسى أننى بين يدى رسول الله وأمير المؤمنين ماثل وبوجهى إلى وجهيهما مقابل. واجتهدت عند وقوعى إلى

---

(١) السيرة ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) فى نهاية الأرب للنويرى. مخطوط رقم ١٥٧٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ورقة ١٥٦ أن التسترى قتل فى جمادى الأولى سنة ٤٣٧هـ.

(٣) السيرة ص ١٢٦

الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه فوجدته بعجمة المهابة معقولا وعن مزية الخطابة معزولا، ولما رفعت رأسى من السجود وجمعت علىّ ثوبى للقعود رأيت بنانا يشير إلىّ بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام. فقطب أمير المؤمنين خلد الله ملكه وجهه عليه زجرا على أننى ما رفعت به رأسا ولا جعلت له قدرا ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استرد الحاضرون منى كلاما ازددت إعجاما ولعقبة العىّ اقتحاما وهو خلد الله ملكه يقول: «دعوه حتى يهدأ ويستأنس». ثم قمت وأخذت يده الكريمة وتركتها على عينى وصدرى ودعيت وخرجت»[1].

فذهب المؤيد بعد خروجه من حضرة الإمام إلى الوزير الفلاحى ووصف له مقابلته لإمامه وكيف انحبس لسانه من شدة الرهبة. فطمأنه الفلاحى وعينه[2] استاذا على باب المجلس الذى يدخل منه إلى أم الخليفة حتى يكون المؤيد قريبا دائما من الإمام متصلا به فى كل وقت. فسر المؤيد بذلك وقنع به ولكن أبا محمد الحسن اليازورى[3] المتصرف فى شئون البلاد إذ ذاك خشى مغبة شدة اتصال المؤيد بالمستنصر وأمه فعزله عن عمله هذا فى أواخر عام تسعة وثلاثين وأربعمائة، وبعد أشهر قليلة قبض اليازورى على الوزير الفلاحى وقتله فى المحرم سنة ٤٤٠هـ، وتولى الوزارة أبو البركات الجرجرائى[4] ولكن ما لبثت أن تحولت علاقة اليازورى والجرجرائى من سوء إلى أسوأ وفسدت أشد الفساد، وكذلك كان أمر الجرجرائى مع المؤيد فقد كان الفلاحى سبب صداقتهما ولكن انقلبت هذه الصداقة إلى عداء وبغض[5] وحدث أن أراد الجرجرائى أن يبطش بأصحاب أبى على بن مالك أبى طاهر بن بويه – وكان أبو على قد احتمى بمصر هو وصحبه – فاستنصر أبو على بالمؤيد ليحميه من الوزير فاحتال المؤيد حتى استصدر أمرا من أم الخليفة إلى الوزير بعدم التعرض لأبى على وأصحابه[6] فكان هذا الحادث وأمثاله مما ضاعف البغضاء بين المؤيد والوزير. وعادت إلى المؤيد سيرته الأولى من كثرة الأعداء حوله حتى قال: «وتحيرت فى شأنى لا أفتح عينا إلاعلى عدو ولا أرى

(١) السيرة ص ١٢٧.

(٢) السيرة ص ١٢٧.

(٣) هو أبو محمد الحسن اليازورى بن على بن عبد الرحمن عهد إليه بالوزارة فى ٧ محرم سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠م) وسمح له بالبقاء فى منصبه الأول وهو مدير خاصة أم الخليفة وبقى فى منصبه حتى قبض عليه فى أول محرم سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨ م) بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى (ابن منجب).

(٤) ابن منجب ص ٣٧ – ٣٨ والذى فى ابن الأثير أن المستنصر استوزر اليازورى فى ذى القعدة (ج ٩ ص ٣٧٧).

(٥) السيرة ص ١٢٩.

(٦) السيرة ص ١٣٠ – ١٣١.

فى جهة من الجهات إلا ضمير سوء[1]» ففكر فى أن يبتعد عن مصر واستعد لذلك ولكنه سمع أن القاسم بن عبد العزيز بن النعمان عزل عن القضاء والدعوة[2] فطمع المؤيد فى أن يولى الدعوة ولكن أبا البركات الجرجرائى أراد أن يوقع بخصمه اليازورى وأن يبعده عن أم الخليفة ويشغله بالقضاء والدعوة فولاه هاتين المرتبتين معا فى المحرم[3] سنة ٤٤١هـ. ولكن اليازورى دهاء منه لم يأبه للقضاء والدعوة بل جعلهما فرعا على عمله فى خدمة أم الخليفة. وغضب المؤيد لأنه لم يصل إلى مرتبة الدعوة فأتم استعداده للرحيل من مصر فاستدعاه اليازورى وأقنعه بالعدول عن عزمه فظن المؤيد أنه قد أوحى إلى اليازورى من الخليفة أو أم الخليفة أن يبلغ ذلك للمؤيد فاضطر المؤيد إلى الإذعان والخضوع[4].

كان اليازورى كما وصفه المؤيد رجلا عاطلا من المواهب التى يصح أن يكون بها فى مرتبة الدعوة. فأراد المؤيد أن يتقرب إليه «واجتهد أن يكون على كثير ممن سبقه إلى هذا المكان مبرزا وأن يكون ما يلفظ به من فوق هذا المنبر معجزا ليعلم أنى قد أمحضته ودى واجتهدت فى تجميله وتحسينه جهدى فجعلت أحوك له وشيئا من الألفاظ يقرأها فى الأندية لولا توقيعاته فيها بزيادة من عنده هى النقص بعينه[5]» واستمر الأمر هكذا عاما وبعض عام كان المؤيد يضع لليازورى مجالس الدعوة. وكان اليازورى يقرأها على الناس كأنها من عنده والمؤيد فى هذا كله منقطع عن الجرجرائى ولم يزره إلا لماما ورأى الوزير شدة صلة المؤيد باليازورى فأراد أن يوقع بينهما أو كما قال المؤيد «ويصدم أحدنا بالآخر كما يفعله الدهاة الذين ليس هو منهم[6]» ولكن الوزير لم يفلح وأخيرا قبض على الجرجرائى عام ٤٤٢هـ وزج به فى السجن[7] وعهد بالوزارة إلى اليازورى فلم يشك الناس فى أن أمر الدعوة صار إلى المؤيد دون غيره، ولكن خاب فألهم إذ ندب لها القاسم بن عبد العزيز بن نعمان[8] مرة أخرى فذهب المؤيد إلى اليازورى معاتبا فاعتذر إليه الوزير بأن عجائز آل النعمان توسطن لدى أم

(١) السيرة ص ١٣١.

(٢) فى الكندى أن ذلك كان سنة ٤٤١.

(٣) الكندى ص ٦١٣.

(٤) السيرة ص ١٣٣.

(٥) السيرة ص ١٣٣.

(٦) السيرة ص ١٣٤.

(٧) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٩١.

(٨) السيرة ص ١٣٦.

الخليفة فى ذلك. وأردف هذا بكلام خفف عن المؤيد آلامه[1] ووعده وعدا حسنا وانتظر المؤيد الوفاء بهذا الوعد ولكنه كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فاشتد حنق المؤيد وأرسل إلى الوزير يشكو عدم الإنصاف وإخلاف الميعاد ويخيل إلى أن المؤيد هجا الوزير فى هذا الخطاب مما جعل الوزير يستشيط غضبا ويهدده ويتوعده فأجابه المؤيد بعدم المبالاة بوعيد أو تهديد[2] وامتنع المؤيد عن لقاء الوزير نحو سبعة أشهر حتى كانت ثورة بنى قرة وانتصار جيوش الخليفة فى قمع هذه الثورات[3] فى ذى القعده سنة ٤٤٣هـ وسارت الوفود إلى الوزير لتهنئته فألح أصحاب المؤيد عليه فى أن يذهب للوزير للتهنئة أيضا فاضطر إلى الذهاب إرضاء لأصدقائه.

المؤيد فى ديوان الإنشاء

بعد ذلك بقليل ولى المؤيد دار الإنشاء وزيد فى رزقه فتحسن حاله ومع ذلك كانت أحواله مع الوزير بين الرضى والغضب. وحدث أن أصيب القاسم بن عبد العزيز بن النعمان داعى الدعاة بالفالج فندب إليها[4] ابنه ويئس المؤيد من الوصول إلى مرتبة الدعوة فأظهر العداء للوزير وهجاه فى رسائله وأحاديثه فى المجالس فاضطر الوزير إلى أن يرسل إليه يوما «إننى أخذتك من ثلثمائة دينار رزقا إلى ألف وزيادة[5] فلم لا تعرف الحق على نفسك» فأجابه المؤيد بقوله «لو علمت فحوى قولك هذا الذى قلته لقيدت لسانك عنه فإنك هجوت السلطان – خلد الله ملكه – به قبح هجو أن جعلت استحقاقى بحضرته ثلثمائة وفى دولته من لا يوزن ظفرا[6] من أظفارى فى خدمته من جنس المشرقى والمغربى وله المال الممدود من خزانته رزقا وما نكر أنك أخذتنى من قلة إلى كثرة ومن عطلة إلى عمل ولكنك إذ ذكرت ذلك فاذكر بذكره عن أى مكان قطعتنى... فلا تمن علىّ بما أعطيت فالذى منعت أكبر[7]».

---

(١) السيرة ص ١٣٧.

(٢) السيرة ص ١٣٨

(٣) راجع هذه الثورة فى ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩٦.

(٤) السيرة ص ١٣٩.

(٥) من الطريف أن المقريزى ذكر فى خططه أن داعى الدعاة وقاضى القضاة كان يتناول كل منهما مائة دينار رزقا بينما ذكر المؤيد أنه كان يتناول ألف دينار وزيادة وهو لم يبلغ بعد مرتبة داعى الدعاة أو قاضى القضاة.

(٦) هكذا فى الأصل والصح يزن.

(٧) السيرة ص ١٣٩ – ١٤٠.

الفصل الثالث

المؤيد ومؤامرة البساسيرى[1]

ظل المؤيد فى مصر بين خصومه وحساده يعمل فى ديوان الإنشاء كغيره من كتاب الدولة الفاطمية حتى سمع بأن طغرلبك دخل مدينة الرى سنة ست وأربعين وأربعمائة بعد[2] أن هادن البيزنطيين وعلم المؤيد أكثر من ذلك أن البيزنطيين اتفقوا مع السلجوقيين لغزو أملاك الدولة الفاطمية فى الشام وأعالى الجزيرة[3] فعمد المؤيد إلى الحيلة والمكر لدفع هذا البلاء الذى سيحل بالفاطميين فكاتب الكندرى[4] وزير طغرلبك باللغة الفارسية، كما كاتب أقواما آخرين ممن كان يعرفهم وظن أنهم على اتصال بالسلجوقيين واجتهد فى أن يستميلهم جميعا إلى الفاطميين، وكان يرمى بذلك إلى هدفين، الأول أن ينجح مسعاه فى دعوة القوم إلى الفاطميين، والهدف الثانى أن يصل إلى مسامع الخليفة العباسى أمر هذه المكاتبات فلا يطمئن إلى طغرلبك وصحبه، ولكن جيش طغرلبك زحف نحو العراق وخطب له على منابر بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة[5] وكان البساسيرى قد هرب من بغداد لما علم بقرب وصول السلجوقيين[6] فاتفق المؤيد مع أولى الأمر فى مصر على أن يكاتبوا البساسيرى ومن معه بأن الفاطميين على استعداد لتأييدهم ومدهم بالأموال والسلاح ضد السلجوقيين، وأرسلت هذه الكتب وسافر المؤيد إلى الحجاز للحج، وبعد عودته عرف أن الرسول الذى أوفد إلى البساسيرى توفى فى الطريق ولم تبلغ الرسائل البساسيرى وعسكره، فاضطر إلى أن يرسل كتبا أخرى وصلت البساسيرى فرحب بها[7] وبالعمل للخليفة الفاطمى. فأخذ

---

(١) السيرة ص ١٤١ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١١.

(٣) السيرة ص ١٤١ وفى ابن الأثير ج ٩ ص ٤١٨ إنه كان يود المسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها.

(٤) هو عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندرى (انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٧. دمية القصر للباخرزى ص ١٤٠. النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥) وف السيرة يسمى بالكيدرى.

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١٨ وما بعدها.

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١٨.

(٧) السيرة ص ١٤٣.

الفاطميون فى إعداد الأموال والخلع والسلاح التى وعدوا بها البساسيرى وانتهز الوزير اليازورى هذه الفرصة لإخراج المؤيد من مصر. فعمد إلى الحيلة إذ سأل المؤيد مرة عمن يصلح لتولى هذا الأمر. ففطن المؤيد من أول وهلة إلى ما كان يرمى إليه الوزير برفق وقابل مكر الوزير بمكر حتى اضطر الوزير إلى أن يصرح له بأن الخليفة نفسه أمر بأن يسافر المؤيد مع هذه الذخيرة[1] فاعتذر المؤيد حتى كان اليوم الذى حددوا فيه سفر الركب بالأموال تمسك الوزير بأذيال المؤيد وأخذ يستعطفه ويلح عليه بأن يكون على رأس هذا الركب. وقال له: افتقرنا إليك وافتقرت الدولة الإسلام والمسلمون وديانتك تقتضى أن تصرخ صريخهم وتجير مستجيرهم. فسخر المؤيد منه قائلا: سبحانى سبحانى إن كنت بهذه المثابة ومحلا لهذه المخاطبة![2] وبعد إلحاح من الوزير ودفع من المؤيد قبل المؤيد أن يتولى هذا الأمر على ألا يوجه إليه لوم عن فشل فى مهمته فأجيب إلى ذلك وصدر توقيع الخليفة نفسه بقبول هذا الشرط. ودعى المؤيد للبس خلع الوزارة وماشاكلها فاعتذر[3] عن ذلك مفضلا أن يظل فى زى أهل العلم، ورحل الركب بعد أن ودع المؤيد إمامه وسار بين جلبة عظيمة والناس فى عجب من أمر هذا الرجل الذى كان مقدما على خطر جسيم وهو قلب نظام الحكم فى العراق وإسقاط الدولة العباسية دون أن يتخذ معه جندا بل كان اعتماده على الأموال والخلع التى كانت معه.

رسم للمؤيد أن يصطنع ثلاثة آلاف رجل من الكلبيين[4] يسير بهم إلى الرحبة كما أمر بألا يتعرض لابن صالح صاحب حلب[5] ولكن المؤيد أخذ يفكر فى أمر هؤلاء الكلبيين وقلب الرأى، فاستصوب أن يتصل بابن صالح مخالفا فى ذلك ما أمر به. ولذلك لما وصل المؤيد دمشق كاتب ابن صالح وشرح له سبب خروجه وقبل أن يسلم نفسه وما معه من الأموال إليه، كاتب الوزير اليازورى وحدثه باتصاله بابن صالح دون اصطناع الكلبيين فأرسل

(١) السيرة ص ١٤٤.

(٢) السيرة ص ١٤٥.

(٣) السيرة ص ١٤٧.

(٤) السيرة ص ١٤٩.

(٥) هو ثمال بن صالح بن مرداس تاج الأمراء ويخيل إلى أن السبب الذى من أجله أمر المؤيد بالابتعاد عنه كما يفهم من ابن الأثير أن معز الدولة صالحا استولى على حلب سنة ٤٣٣هـ عقب وفاة أنوشتكين نائب المستنصر بالشام وفى عام ٤٤٠هـ أراد المصريون الاستيلاء على حلب فلم يوفقوا إلا عام ٤٤١هـ ولكن ابن صالح ملكها مرة أخرى ولم يذكر المؤرخون متى استعادها ابن صالح.

إليه اليازورى يحذره ويتوعده فلم يعبأ المؤيد بنذيره أو وعيده وأطال المؤيد المقام بدمشق واليازورى يرسل إليه يعنفه لتثاقله ويحثه على الإسراع ويكرر له الحذر من دخول حلب ومعاملة ابن صالح[1]. ولكن المؤيد لم يأبه به واضطر المؤيد إلى أن ينتظر عودة ابن صالح من حروبه مع منيع بن شبيب النميرى صاحب حران وكانا يتحاربان على الرقة[2] حتى إذا انتهى ابن صالح من حربه واعد المؤيد على اللقاء بالروستان[3] فقدم المؤيد جمال الخزائن وسار فى عقبها وأبى أن يسير بين يديه أحد حراسه فكان عمله هذا من الأسباب التى طمأنت ابن صالح وجعلته يثق فى المؤيد ويلبى دعوته ويظهر رغبته لخدمة الفاطميين. وسار المؤيد وابن صالح حتى بلغا معرة النعمان وهناك قابلا نخبة وجوه العسكر البغدادى جاءوا لمقابلة المؤيد لما طال بهم أمد الانتظار وقد ظنوا أن ما وعدهم به الفاطميون تغرير بهم فاطمأنت قلوبهم ورحلوا جميعا إلى حلب. وهناك أخذ المؤيد عليهم إيمان البيعة للخليفة المستنصر وخلع على بن صالح ثم تأهبوا إلى الرحبة حيث البساسيرى. وبينما هو كذلك وصله خطاب من نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر يحدثه بأنه شايع طغرلبك فلما رآه ظالما شريرا ترك الخضوع له وأظهر فى خطابه رغبته فى معاونة المؤيد، فرحب المؤيد بدخوله فى طاعته ودعاه إلى أن يدعو للمستنصر الفاطمى فى بلاده وأن يتصل بالخليفة الفاطمى فى مصر فكان للمؤيد ذلك كله. وكذلك أخذ المؤيد فى مراسلة القواد والكتاب يستميلهم إليه ويدعوهم إلى نصرته وتأييده ويحذرهم من الخضوع لطغرلبك. كما حاول أن يقابل ابن وثاب النميرى عدو ابن صالح ولكنه لم يوفق لأنه خشى مكيدة من مكائده ونجد فى كتاب السيرة المؤيدية صور هذه الخطابات جميعا التى تعد من أقوم وثائق التاريخ الإسلامى فى القرن الخامس للهجرة. وسار المؤيد إلى الرحبة للقاء البساسيرى.

مؤامرة البساسيرى

ليس لنا فى هذا المقام أن نتحدث عن قيام البساسيرى ضد العباسيين وطغرلبك ويكفى أن أقول إن جمعا كبيرا من العرب والأتراك والأكراد تجمعوا حول البساسيرى ولبوا نداءه. وقوى شأنهم لما سرى فيهم نبأ ورود المؤيد بالأموال. فخرج البساسيرى وجيشه للقائه على بعد

(١) السيرة ص ١٥١.

(٢) مرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٣) موضع يلى حمص على جسر نهر العاصى.

مرحلتين من الرحبة ووصف المؤيد هذا الجمع بقوله: «إلى أن لقينا أبو الحارث البساسيرى والعسكر البغدادى على مرحلتين من الرحبة وإذا هم قد ضربوا مصافهم وضرب خيلنا مصافه فرأيت العسكر تلاحق ميمنة نحو الجبل وميسرة طرف الفرات. وسمعت الأبواق تخرق الحجب بالأصوات ورأيت أقطار الهواء كأنها صبغت حمراء وصفراء من أصباغ الرايات ودخلنا الرحبة دخولا عليه من آثار السعادة وسم، وتجاوزناها إلى شاطىء الفرات فنصبنا الخيام ووسطت جمعا جمع كل قاطع زقاق وكل جلال من الناس ودقاق تراموا إلى تلك البقعة من كل آفاق تركى وكردى على اختلاف الجنس وعربى من كل طامع ذى ناب من الطمع حديد[1]».

أخذ المؤيد بعد ذلك العهود والمواثيق على أمراء العرب والأكراد وخلع عليهم الخلع الفاطمية النفيسة التى لم يشاهدوا لها مثيلا، ووهب كل فريق نصيبه من الأموال فكان بعضهم يأخذ نصيبه شاكرا وبعضهم كان يستقل القدر ويرده. وتذمر أكثر الجند وثاروا مطالبين بزيادة العطاء وانتشر دعاة السوء بينهم فحاول المؤيد أن يرضيهم بالحسنى فلم يوفق وأخيرا اضطر إلى أن يخاطبهم بشىء من العنف والتأنيب وأن يسامحهم باليمين التى أقسموها بين يديه ليكون طوق منة الخليفة الفاطمى فى رقابهم[2] وامتنع عن تحليفهم فعاد الجميع يتضرعون إلى المؤيد أن يجدد عليهم العهد واعتذروا إليه وبعد أيام دعا أبا الحارث وخلع عليه وقرأ عهده على الناس.

ثم سمع المؤيد أن نور الدين دبيس بن مزيد الأسدى[3] قد اتفق وقريش بن بدران العقيلى[4] على الخضوع لطغرلبك طمعا فى أن يحمى بلديهما من نهب جنوده، ولكن طغرلبك أبى أن يقبل منهما هذا الخضوع إلا بعد أن يدفع كل منهما ولدا رهينة[5] عنده فعز ذلك على دبيس بن مزيد فانتهز المؤيد هذه الفرصة وكاتب ابن مزيد يحثه على اللحاق به فأسرع ابن مزيد إلى المؤيد، ولكنه علم بأمر الخلع والألقاب التى شرف بها البساسيرى فجرى الحسد فى عروقه وأخذ يملى على المؤيد شروط تضامنه معه فقبلها المؤيد كلها،

---

(١) السيرة ١٨١ وما بعدها.

(٢) شرحه ص ١٨٣

(٣) معجم البلدان «حلة دبيس بن مزيد فى أرض بابل».

(٤) كان أميرا على الموصل فى ذلك العصر.

(٥) مرآة الزمان حوادث عام ٤٤٨هـ.

ثم أخذ ابن مزيد بعد ذلك فى مساومة المؤيد وأوعز إلى العلماء الذين أتوا معه أن يناظروا المؤيد فى بعض المسائل المذهبية ثم سألوا المؤيد عما يكون عليه أمرهم إذا تم له ملك بغداد إلى غير ذلك من الأمور التى إن دلت على شىء فإنما تدل على ضعف العزيمة والتردد ثم الطمع فيما كان يحمله المؤيد من أموال وألقاب وخلع. ولما أراد المؤيد أن يأخذ أيمان البيعة على ابن مزيد أبى رجال ابن مزيد عليه أن يقسم قبل أن يطلعوا على صيغة اليمين وأخذوا فى تغيير اليمين وتحويره يوما كاملا والمؤيد صابر أو هو مضطر إلى اصطناع الصبر حتى ضاق به الأمر فأراد أن يعفى ابن مزيد من اليمين جملة ولكن ابن مزيد وهو رجل العرب فى ذلك العصر وأكبر أمرائهم أبى إلا أن يقسم بين يدى المؤيد[1] فكتب له المؤيد العهد ولقبه (بالأمير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة صفى أمير المؤمنين[2]) وبعد ذلك كله أخذ ابن مزيد يطلب من المؤيد بعض أمور من شأنها أن تقسم جيشه وتبعد عنه ابن صالح، فكان المؤيد يقابل هذا كله بمكر ودهاء وكان يحاول أن يسعى بين ابن مزيد وابن صالح ولكن كان سعيه سعى امرئ بين ضباع تتهارش وذئاب تتجارح وتتخادش[3]. كان موقف المؤيد دقيقا حرجا إذ كان بين جماعة تختلف أجناسهم ومذاهبهم وكانوا متباغضين متشاحنين وحاول المؤيد مرارا أن يوفق بين هؤلاء الأقوام جميعا فكان يجد كل يوم صعوبة فى سبيل هذا التوفيق، كما أصبحوا مصدر تعبه، ووصف المؤيد حاله بقوله «وكنت أصبح وأمسى فى أثواب من انقطعت به الجبال وضاعت على يده الأموال، وضاقت به من الهم السهول والجمال غير أنى أظهر فى خلال ما أقاسيه جلدا ولا أشعر بحزازات صدرى أحدا[4]» كان هذا حال جيش البساسيرى الذى كان يدبره ويدير دفته المؤيد، وازداد حال هذا الجيش سوءا بورود نجدة من دمشق من بعض الأمراء الكلبيين فلقيهم المؤيد بالابتهاج ولكن الكلبيين سرعان ما ضجوا وتذمروا لأنهم جردوا على أن يشهدوا جيش العرب من الكلابيين والعقيليين والنميريين خارجا عن جماعة الترك والأكراد، وصمم الكلبيون على عدم المسير مع الجيش إلا إذا انفصل العرب عن غيرهم، فازداد تعب المؤيد حتى قال عن ذلك «فمد لى معهم من الصداع ما لو كنت بليت به وحده لكان كافيا[5]» وأخيرا استطاع المؤيد أن

(١) السيرة ص ١٩١.
(٢) شرحه ص ١٩٢.
(٣) شرحه ص ١٩٤.
(٤) شرحه ص ١٩٤.
(٥) شرحه ص ١٦٥.

يرضيهم بالمال فساروا مع باقى الجيش فى عاشر رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة[1]. وظل المؤيد يدبر شئون هذا الجيش ويرقب حركاته ويكاتب الأمراء حوله لنصرته ويدعو أعداءه لاعتناق المذهب الفاطمى حتى انتصرت جيوشه على جيوش طغرلبك فى الموقعة التى تعرف بموقعة سنجار[2] فأرسل المؤيد إلى مصر بالنصر وقال ابن الجوزى إنه أرسل إلى مصر ألفى رأس ومائتين[3] وبهذه الموقعة استطاعت جيوش المؤيد أن تدخل الموصل فى شوال[4] وهنا توسل ابن مزيد إلى المؤيد أن يعفو عن قريش بن بدران وأن يخلع عليه. وكان لهذا الانتصار ولكتب المؤيد إلى الأمراء أثر قوى فى نفوس أمراء العراق إذ أرسل محمود بن الأخرم الخفاجى إلى المؤيد أنه أقام الدعوة للمستنصر الفاطمى بالكوفة[5] وأرسل ابن قائد بن رحمة أمير واسط أنه دعا للمستنصر بها وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى[6].

فشل المؤامرة

إلى هنا كان المؤيد قد نجح نجاحا ملموسا فى مهمته إذ انتصرت جيوشه على جيوش طغرلبك واستمالت رسائله بعض أمراء العرب. فسعوا إليه يؤيدونه للقضاء على الخلافة العباسية وقوة التركمانية. كما انتشرت الدعوة للخليفة الفاطمى فى بعض البلدان العراقية ولكن النجاح الذى ظفر به المؤيد لم يدم طويلا. لأن جيوشه كانت تجمع نفوسا متباغضة متشاحنة كما ذكرنا. فسرعان ما دب فيها دبيب الفساد فانفصل بنو عقيل عن الجيش[7] وتبعهم عدد كبير من الجند. فلما علم طغرلبك بانقسام جيوش عدوه سارع إليهم فوجل

---

(١) مرآة الزمان المجلد السادس عشر ص ١٧.

(٢) هذه الموقعة هى التى أشار إليها الشاعر ابن حيوس بقوله:

عجبت لمدعى الآفاق ملكا وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيف بمصر تقام به بسنجار الحدود

[الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤].

(٣) مرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨هـ.

(٤) شرحه.

(٥) السيرة ص ٢٠٤ ولكن فى مرآة الزمان إن الذى قام بذلك هو بدر بن على الأسدى.

(٦) فى مرآة الزمان إن ذلك كان فى ذى القعدة سنة ٤٤٨هـ.

(٧) السيرة ص ٢٠٩.

أهالى هذه الجهات ولا سيما أهل الرحبة وخشى المؤيد نفسه من مقامه بالرحبة ولكنه أظهر الجلد أمام الناس أما فى قرارة نفسه فكان كما قال «وأنا فى باطن أمرى متكفن متحنط أنتظر تخطف الأيدى لى من كل مكان وأجمع أمرى على أنه إن دهمنى ما احظره رميت بنفسى فى جانب البر فلا أزال أضرب فيه إلى أن يحضرنى حاضر الجوع والتعب والعطش فأهلك. وإن أدركنى طالب من جهة العدو أبيت أن أعطيه قيادى دون أن أقطع قطعة قطعة تفاديا من أن أقاد إليهم حيا»[1] ولذلك اضطر إلى أن يبعد عنه كل أصحابه الذين كان يخشى عليهم من طغيان العدو. وأكثر من إرسال الكتب إلى البساسيرى وغيره من الأمراء يشجعهم ويؤملهم فى النصر، ولكن هذه الرسائل لم تفد شيئا لأن الأمراء لم يتحركوا عن موقفهم. وازدادت الحال سوءا بأن ادعى بعض المغرضين أن المؤيد اعتاد أن يحتجز لنفسه بعض الأموال التى كانت ترد إليه من مصر باسم الأمراء وانتشر هذا المقال بين الجيش فثار القواد والأمراء. واضطر البساسيرى إلى أن يرجع إلى الرحبة ومعه من كل فرقة رسول. وطالبوا المؤيد بأن يدفع لهم مائتى ألف دينار فورا وهددوا المؤيد إن لم يدفع هذا المال فالجيش فى حل من قسمه وللأمراء أن يتفرقوا ليسلى كل منهم فى عمله فاضطرب المؤيد ودهش من ذلك وأجابهم بقوله «كلامكم هذا من يبتغى حجة ويحاول تعلة وتظنون أنكم أخذتمونى فى مضيق لا مخلص منه وليس الأمر على ما تظنون. ومائتا ألف دينار التى تطلبونها فلم أطلع على معرفة الكيميا فأخرج ما تلتمسونه إليكم فإن على كل يد رد ما أخذتْ والمحمول إلىّ يقترن به كتاب يدل على مبلغه فإذا أخرجت الكتاب وعرضته عليكم لم تبق على حجة بعده»[2]. فعاد البساسيرى ومن معه ولكن ذهاب البساسيرى إلى الرحبة أوقع فى جيشه أنه هرب، وسمع طغرلبك بذلك فبدأ الحرب وطال أمدها واشتد أمرها، فلما رأى المؤيد ذلك كاتب الكندرى وزير طغرلبك والمحرك الفعال للبلاد وأغراه هو ومليكه باعتناق المذهب الفاطمى ولكن الكندرى كان داهية فى سياسته فقابل مكر المؤيد ودهاءه بمكر ودهاء، إذ اتبع نفس الخطة التى اتبعها المؤيد فى مكاتبة أعدائه وخصومه وخدعهم بالولايات المختلفة فآمن بقوله أكثر الأمراء الذين كانوا فى جيش المؤيد واضطر البساسيرى إلى الهرب وتشتت شمل الجيش.

---

(١) شرحه ص ٢١١.

(٢) السيرة ص ٢٣٠.

لم يجد المؤيد بدا من الهرب فسار إلى حلب. ولكنه فى سنة ٤٤٩هـ أرسل البساسيرى إلى المؤيد يظهر رغبته فى لقائه على أن يتقابلا فى دير حافر[١] دون أن يفطن أحد إلى لقائهما وفى اجتماعهما أكد البساسيرى عهده للمؤيد[٢] واتفقا على الخطة التى تؤدى إلى نجاح سعيهما. وعاد المؤيد إلى حلب فوجد ابن صالح قد راسل الخليفة فى مصر يدعوه لأن يرسل أميرا من قبله ليتولى مدينة حلب ووصلت جيوش مصر لأخذ المدينة ولكن قوما من حلب يعرفون بالأحداث «هم لها أملك من مالكها وأكثر استيلاء عليها من واليها وبينهم وبين المغاربة من قديم الوقت إحن وطوائل»[٣] ألهبوا فتنة فى حلب فتحصن ابن صالح بالقلعة وأشار على المؤيد بالهرب من هذه الثورة العمياء ولكنه أظهر تجلدا ودعا أهالى حلب إلى سماع كلمة منه فخطبهم حاضا إياهم على السكينة وتحكيم عقولهم وأمنهم على حياتهم وأموالهم فنجح فى إخماد هذه الثورة ودخلت الجيوش المصرية حلب وتولاها أبو علم بن ملهم الخويلدى[٤].

عودة المؤيد

بعد أيام قليلة أرسل إبراهيم بن ينال من الموصل رسولا إلى البساسيرى ومن معه يدعوهم فى الظاهر إلى طاعة طغرلبك أما فى الباطن فكان يطلب إليهم أن يخاطبوا المؤيد لأن يخلع عليه ويلقبه من جانب الدولة الفاطمية إذا هو غدر بطغرلبك وملك البلاد باسم الفاطميين[٥] وسرعان ما سير البساسيرى رسول إبراهيم بن ينال إلى المؤيد بحلب، ومن الطبيعى أن يرحب المؤيد بمثل هذه الدعوة وأن يعاقد كل من يعمل لها فكان أن سلم المؤيد بكل ما طلبه ابن ينال[٦]. وأطال المؤيد المقام بحلب يراقب حركات إبراهيم بعد هذا الاتفاق الذى أبرم بينهما، ثم لأن المؤيد كلما هم بترك حلب تبعه البساسيرى بجيشه. فلما ورد الخبر بانفصال ابن ينال عن الموصل انتهز هذه الفرصة وأمر البساسيرى بالرجوع إلى الرحبة واتجه هو

---

(١) قرية بين حلب وبالس يذكرها أبو عبد الله محمد بن نصر فى شعره:

ألا كم ترامت بالس بمسافر وكم حافر أدميت بادير حافر

(٢) السيرة ص ٢٥٦.

(٣) شرحه ص ٢٥٨.

(٤) مرآة الزمان مجلد ١٦ ص ٤٤.

(٥) السيرة ص ٢٦٣.

(٦) السيرة ص ٢٦٤.

إلى مصر[1]. فلما بلغ المؤيد مدينة صور وجد بها بعض أمراء الأتراك البغداديين مقاطعين للبساسيرى وعازمين على أن يرحلوا إلى مصر[2] وخشى المؤيد من هؤلاء الأمراء أن يصبحوا مصدر متاعب للخليفة فى مصر فأخذ يداريهم ويتلطف لهم حتى أقنعهم بالعدول عن عزمهم وأن يردهم إلى جيش البساسيرى وبذلك تخلص منهم ومن شرورهم.

أما هو فقد واصل سيره إلى مصر حتى بلغ موضعا يسمى البواقير وهناك قابله بريد مصر يحمل إليه رسالة بأن الوزير البابلى[3] قد عزل عن الوزارة وولى بدله الوزير المغربى. وأن الوزير المغربى يأمر المؤيد بأن يعود إلى حلب وأن يظل فيها حتى يرى الوزير رأيه بعد ذلك. فوقع المؤيد بين عاملين إما أن يخالف هذا الرأى ويواصل سيره إلى مصر. أو أن يصدع بهذا الأمر ويعود إلى حلب. وقلب وجوه الرأى فوجد العودة إلى حلب ممتنعة عليه فصمم على مواصلة السير إلى مصر. ولكن وصله أمر آخر كسابقه. فلم يأبه به وواصل سيره حتى انتهى إلى الفرقان فوجد ثلاثة من النجابين برسالة ثالثة فى نفس المعنى مما ازدادت له دهشة المؤيد وجعله يصر على دخول مصر وهو فى عجب من أمر هؤلاء الذين يحاولون منعه من دخولها بعد هذه الخدمات التى أداها لهم. وخشى أن يتخذ فى سيره إلى مصر الطريق المالوف فيفاجأ بمثل هذه الرسائل فاجتنب هذه الطرق واتخذ لنفسه طرقا أخرى فى البرية والمجاهل متنكرا فى رحلته كما كان متنكرا فى رحيله إلى مصر لأول مرة فما شعر به أحد حتى رأوه على باب القاهرة.

المؤيد داعى الدعاة

يخيل إلى أن المؤيد لم يجد من الوزير المغربى ما كان جديرا بمثله من التكريم والإجلال ولم يجد من الخليفة المستنصر ما كان يتوقعه من وضعه فى المكانة التى كانت تليق به. أو قل إن الخليفة المستنصر لم يكن له الأمر ومن النفوذ حتى يكافئ المؤيد على أعماله التى قام بها فى فارس والعراق والشام. فاضطر المؤيد إلى أن يشكو ما بنفسه مشيدا بأفعاله مخاطبا المستنصر بقوله:

(١) شرحه.

(٢) هكذا فى السيرة ص ٢٦٥ ولكن الذى فى مرآة الزمان ج ١٦ ص ٢٤٥ إن المؤيد قابلهم فى دمشق وقد أخذنا برواية المؤيد.

(٣) هو أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى ولى الوزارة بعد اليازورى سنة ٤٥٠هـ وصرف عنها فى ربيع الأول وقرر مكانه أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين المغربى (ابن ميسر ص ١٠ وابن منجب ص ٤٦).

أقسم لو انك توجتنى بتاج كسرى ملك المشرق
ونلتنى كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يا مولاى بل نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة شيب فودى مع المفرق

ويخيل إلىّ أيضا أن المؤيد أرسل هذا الشعر إلى المستنصر فى وقت كان الوزير يعين فيه داعى الدعاة فبلغ هذا القول الخليفة وأدرك أنه لا يصلح لهذا الأمر غير والمؤيد فقيل إن المستنصر أجاب المؤيد على هذا الشعر بشعر آخر بنفس الوزن والقافية ولقبه بالحجة وهى أسمى مرتبة فى الدعوة الفاطمية كما سنذكر فيما بعد.

يا حجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق

ومهما يكن من شىء فإن المؤيد صار إليه أمر الدعوة الفاطمية فى سنة ٤٥٠ هـ[١] وهى التى عاد فيها إلى مصر. وهى نفس السنة التى تم فيها الدعاء للخليفة الفاطمى على منابر بغداد فقد نجح المؤيد فى مؤامرته وتدبيره مع البساسيرى وإبراهيم بن ينال لقلب نظام الحكم فى بغداد.

لا أستطيع أن أحدد تماما المدة التى مكثها المؤيد فى مرتبة داعى الدعاة ولم يحدثنا أحد من المؤرخين ولم يحدثنا هو نفسه عن حياته بعد عام ٤٥٠هـ إلا ما رواه لنا الحسن بن نوح عن علاقة المؤيد بلمك بن مالك وسنذكر ذلك فيما بعد، كذلك لا أستطيع أن أعرف هل كان المؤيد أصلا فى الدعوة بعد ذلك أم كان ينوب عن داعى الدعاة لأن الصيرفى[٢] حدثنا أن عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد تولى الوزارة والدعوة والقضاء عام ٤٥٣ هـ وتولى أخوه أبو على أحمد بن عبد الحاكم هذه المراتب سنة ٤٥٤هـ[٣] ثم ما حدثنا به ابن منجب الصيرفى أيضا أن الوزير عبد الله بن يحيى بن المدبر[٤] الذى تولى الوزارة دفعتين

(١) ص ١٠ تاريخ مصر لابن ميسر.
(٢) ص ٤٨ ابن منجب.
(٣) ابن منجب ص ٤٩
(٤) ابن منجب ص ٤٨.

إحداهما فى صفر سنة ٤٥٣هـ وصرف عنها بعد شهور والأخرى فى ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وأربعمائة وتوفى فى جمادى الأولى من هذه السنة. كان هذا الوزير قد اقترح إبعاد المؤيد من مصر فسير إلى الشام ثم عاد بعد مدة[١] ولا أدرى فى أى سنة أبعد المؤيد من مصر ومتى عاد إليها. لا أشك أن المؤيد أصبح له بعض النفوذ فى البلاد حتى خشى الوزير سطوته ونفوذه فاقترح إبعاده عن مصر. ثم نرى بعد ذلك شيئا من نفوذ المؤيد إذ تولى صنيعته ونائبه فى ديوان الإنشاء أبو الحسن على بن الأنبارى الوزارة سنة ٤٥٧هـ[٢].

ومع هذا فحياة المؤيد بعد عام ٤٥٠ غامضة أشد الغموض كما هى غامضة أيضا قبل عام ٤٢٩هـ لا نستطيع أن نعرف عنها إلا ما قيل إنه توفى عام ٤٧٠هـ[٣] وذهب الحسن بن نوح إلى أنه توفى فى العشرة الأولى من شوال سنة ٤٩٠هـ[٤] ولكنى لا أوافق ابن نوح لأنه قال أيضا إن المستنصر صلى عليه والمستنصر كما نعلم توفى سنة ٤٨٧هـ. فكيف يتأتى للمستنصر أن يصلى على المؤيد عام ٤٩٠هـ. ولم تختلف المصادر التى تحدثت عن وفاة المؤيد أنه دفن فى دار العلم بالقاهرة. فقد ذكر المقريزى فى حديثه عن دار العلم وفيها مدفون الداعى المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الأعجمى[٥]. ويؤيد هذا القول ما جاء فى كتاب الأزهار.

---

(١) انظر اتعاظ الحنفاء ص ١٤٤ وابن ميسر ص ١٢.

(٢) ص ٥٢ ابن منجب وابن ميسر ص ٣٣.

(٣) ص ٤٧ إيفانوف.

(٤) ص ٨٩ ج ١ كتاب الأزهار.

(٥) ج ٢ ص ٣٣٧.

الفصل الرابع
مرتبة داعى الدعاة

قال المقريزى «ووظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية»[1] وقد صدق المقريزى فى هذا القول. لأنى لا أكاد أعرف دولة من دول الاسلام كانت تفرد مرتبة خاصة لداعى الدعاة غير الدولة الفاطمية. وإن كان للعباسيين نقباء كانوا يدعون لهم. كما قيل إن المعتزلة كان لهم بعض الدعاة فى الأقاليم. ولكن العباسيين بعد أن صار إليهم الأمر لم يولوا أحدا مرتبة الدعوة ولم تكن المعتزلة بدولة لها حكومتها. أما الفاطميون الذين اهتموا بأمر الدعوة ووضعوا لها نظما وقواعد دقيقة لأن دولتهم إنما قامت على أساس هذه النظم التى وضعوها للدعوة. وبالرغم من أن هذه الدعوة ومرتبة داعى الدعاة من الأهمية التاريخية بمكان فإنى لا أكاد أعرف كاتبا تحدث عن الدعوة أو عن داعى الدعاة حديث عالم بأسرارهما التى وضعها الفاطميون. فكل الذين كتبوا عن الدولة الفاطمية من مستشرقين وغير مستشرقين أخذوا ما ذكره المقريزى والقلقشندى من «أن داعى الدعاة كان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيى بزيه فى اللباس وغيره»[2] بينما نجد كتب الفاطميين ومن ورث دعوتهم تفرد فصولا طوالا عن الداعى والحدود.

أخذ الفاطميون لفظ «الداعى» من القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[3] وأضاف الله تعالى الدعوة إلى نفسه ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾[4] وقال تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾[5] ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[6] فمن هذه الآيات وغيرها أخذ الفاطميون هذا اللفظ الذى عده الفاطميون من الألفاظ الشريفة[7] لأن الله تعالى سمى النبى داعيا وقال

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ «ولعل الأصوب من مقررات الدولة الفاطمية».

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٤٥ – ٤٦.

(٤) سورة الرعد الآية: ١٤.

(٥) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٦) سورة الحج الآية: ٦٧.

(٧) الأزهار ج ٢ ص ١٠١.

الله تعالى على لسان نوح ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾[1] فالأنبياء فى الحقيقة ما هم إلا دعاة من الله تعالى إلى عباده. قال الفاطميون إن هنالك واسطة بين الله تعالى والنبى سماهم الفاطميون «بالحدود الخمسة الروحانية» ورووا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «بينى وبين الله خمس وسائط جبرائيل وميكائيل وإسرافيل واللوح والقلم»[2] وأن جميع الأنبياء لم يأخذوا التأييد ولا اتصلت بهم المواد إلا عن طريق هذه الحدود الروحانية غير المجسمة ولا المتشخصة[3] وفسر الكرمانى قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾[4] بأن القسم الأول هو رتبة «الجد» الذى هو كلام الله وحيا فذلك هو السارى من روح القدس بلا واسطة، متصل بالمبعوث المختار فى كل وقت وحين وهو أعلى الرتب. أو (من وراء حجاب) هو إدراك الأشياء بالفكرة الصافية بالأمثال المضروبة وهو رتبة الفتح (أو يرسل رسولا) وهى الرتبة الثالثة رتبة الخيال الذى يتمثل له بشرا سويا أعنى القوة التى تواصله من دار القدس الذى هو الملك إما قولا بالسمع أو تشخيصا برؤية العين يراه هو دون غيره[5] فاستعمل الكرمانى فى تفسير الآية الاصطلاحات الفاطمية. إذ أطلق الفاطميون على الحدود الروحانية أسماء خاصة وضعوها لهم فسموا «القلم» بالسابق «لأنه أسبق الحدود إلى معرفة الله وتوحيده وتبعه فى ذلك «اللوح» ولذا سمى «بالتالى» و «الخيال» واقع على إسرافيل لأنه أول عارض يتخيل فى الفكر النافخ نفخة البعث وسمى «ميكائيل» «بالجد» أخذت من قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[6] واطلق «الفتح» على «جبرائيل» لأنه فتح بالذكر ما صح فى الفكر مما خفى[7]. ولكن لم يتفق كتاب الفاطميين على إطلاق هذه الأسماء على الحدود الروحانية على هذا النحو الذى ذكرناه فنجدهم أحيانا قد أطلقوا الخيال على جبريل والفتح على

---

(١) سورة نوح الآية: ٨.

(٢) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٤٣.

(٣) سرائر النطقاء هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ٥.

(٤) سورة الشورى الآية: ٥١.

(٥) هامش جامع الحقائق ج ١ ص ١١٤.

(٦) سورة الجن الآية: ٣.

(٧) سرائر النطقاء على هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ٦.

ميكائيل والجد على إسرافيل[1] وسمى المؤيد جبرائيل بالفتح وإسرافيل بالجد[2] وفى كتاب الذخيرة «كل حد عال فهو خيال وكل عال على ذلك الحد فهو فتحه وكل عال على العالى على حده فهو جده»[3] أى أنه اطلق اسم «الخيال» على جبرائيل و «الفتح» على ميكائيل و «الجد» على إسرافيل. وفى كتاب الفترات والقرانات «وأفضى السابق إلى تاليه المادة الإرادية والمشيئة والقضاء فأفضى التالى إلى الجد ما يجرى فى العالم الروحانى وهو إسرافيل فأفضى به إسرافيل إلى الفتح وهو ميكائيل وإنما سمى إسرافيل الجد لأنه لما انفرد الجد بالتنفيذ كان جدا بمعنى المجد فيما أهل له وفيما عزم التالى عليه فيه فيما أمضاه السابق من أمره فى تاليه وإليه أفضى به فأفضى به الجد إلى الفتح وهو ميكائيل، وإنما سمى ميكائيل الفتح لأنه أول من استفتح المواد من ثالث فوقه وفاتح ثلاثة حدود تحته روحانى وهو «الخيال» والناطق والأساس فصار بذلك الفتح إلى الخيال «جبريل» وإنما سمى خيالا لأنه تخلى من بين الحدود الروحانية لمخالأت النطقاء والمرسلين عن أمر رب العالمين»[4].

من هذا كله نستطيع أن ندرك أن الفاطميين وضعوا هذه الاصطلاحات ثم اختلفوا فيما تدل عليه هذه المصطلاحات. كما اختلفوا أيضا فى سبب إطلاق هذه الاصطلاحات كما هو واضح فى شرح جعفر بن منصور اليمن وشرح صاحب الفترات والقرانات ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات فإن جميع المصادر تجمع على أن كل حد يعلو يمد من دونه فالقلم يمد اللوح واللوح يمد إسرافيل وإسرافيل يمد جبرائيل وجبرائيل يمد النبى[5]. ويروون قول النبى صلى الله عليه: «إنى آخذ الوحى عن جبريل وجبريل يأخذه عن ميكائيل وميكائيل يأخذه عن إسرافيل وإسرافيل يأخذه عن اللوح واللوح يأخذه عن القلم» فصار التأييد بالنطقاء عن خمسة حدود علوية. ويتصل عنهم بالمستجيبين عن خمسة حدود سفلية هم الأئمة والأسس والحجج والنقباء وهم أصحاب الجزائر والأجنحة وهم الدعاة[6] وإلى الخمسة الفاضلة من الملائكة أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «حدثنى جبرائيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم»[7]. كما أوّل الفاطميون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بأن

(١) هامش جامع الحقائق ج ١ ص ٢٣ (كتاب الأنوار اللطيفة).
(٢) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٢.
(٣) الذخيرة على هامش جامع الحقائق ج ١ ص ٦٤.
(٤) ص ١٣٥.
(٥) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٢.
(٦) أساس التأويل ص ٦١ – ٦٢.
(٧) إخوان الصفاء ج ٤ ص ٢٢ (طبعة بومباى).

الله تعالى والنبى الكريم أشارا إلى هؤلاء الحدود، فالأبواب الثمانية التى لا مدخل إلى الجنة إلا منها إشارة إلى حدود روحانية وجسمانية بهم دخول الجنة، فالروحانيون هم الوسائط الخمسة المتقدمة والثلاثة الباقية إشارة إلى مراتب جسمانية هى النبوة والوصاية والإمامة، وهؤلاء الحدود أيضا هم حملة العرش[1]. وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2] بأن الله تعالى أراد الإبانة عن مراتب الحدود العلوية والسفلية[3]. وأولوا حروف أوائل السور بأن الحروف لم تزد على خمسة مثل «كهيعص وحم وعسق» والله سبحانه وتعالى لا يقسم إلا بأجل ما عنده، وأن الإشارة إلى أجل حدود الله من الملائكة الروحانيين والحدود الجسمانيين فحيث ذكر حرفا واحدا مثل ق والقرآن المجيد ون والقلم فهو مشار به إلى أعلى الحدود منزلة وأرفعهم درجة فى الحدود الروحانية وممثوله فى الحدود الجسمانية إلى أن تستكمل الحروف الخمسة[4].

وبتطبيق نظرية المثل والممثول – التى سنتحدث عنها بعد والتى هى عماد عقيدة الفاطميين فى التأويل – يجب أن يكون فى العالم الجسمانى حدود جسمانية تماثل الحدود الروحانية ولذا قال الفاطميون إن الله سبحانه وتعالى أقام العالمين العلوى والسفلى بعشرة كاملة خمسة أنوار روحانية وخمسة جسمانية[5]. واختلف كتاب الفاطميين أيضا فى الحدود الأرضية التى تقابل الحدود العلوية ففى الفترات القرانات[6] أن الناطق والأساس والإمام والحجة والداعى تدل على الخمسة الأشباح الروحانية. وفى سرائر النطقاء[7] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصب خمسة حدود بإزاء الخمسة العلوية وهم الأساس والإمام والباب والحجة والداعى أى أنه جعل الأساس يقابل السابق والإمام يقابل التالى والباب يقابل الخيال والحجة فى مقابلة الجد والداعى فى مقابلة الفتح. وفى المجالس

---

(١) المجالس ج ١ ص ٢٢٢.

(٢) سورة المزمل الآية: ٤.

(٣) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٦.

(٤) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢١٢. ونلاحظ أن الفاطميين رمزوا إلى القلم بالكاف وإلى اللوح بالنون من قوله «كن» وإذن لا أستطيع أن أعلل قول المؤيد هنا فى تأويل «نون والقلم» إن الحرف يشار به إلى أعلى الحدود منزلة وأرفعهم درجة فى الحدود الروحانية وقد ذكرنا أن القلم هو أعلى الحدود

(٥) الفترات والقرانات ص ٦٩.

(٦) ورقة ١٠٨.

(٧) هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ١٠٧.

المؤيدية[1] أن الحدود الأرضية أو الجسمانية هم النبى والوصى والإمام والحجة والداعى يقابل كل منهم على الترتيب السابق والتالى والجد والفتح والخيال. ولا أدرى كيف ذهبوا إلى هذا القول مع أن النبى هو الإمام فى عصره والوصى إمام فى عصره فلا توجد مرتبة فى عصر النبى والوصى تلى مرتبتهما تعرف بمرتبة الإمام، ومرتبة الإمامة بعد عصر النبى والوصى فى مرتبة النبوة والوصاية فى عصر النبى والوصى عندى أن الوضع الصحيح للحدود الجسمانية أن النبى مثل السابق والوصى التالى وفى عصر الأئمة الإمام مثل السابق والحجة هو التالى كما يظهر من كلام أبى حنيفة النعمان المغربى[2] إن الحدود الجسمانية هم النبى أو الإمام ثم الوصى أو الحجة ثم باب الأبواب أو داعى الدعاة ثم النقباء وهم أكابر الدعاة أصحاب الجزائر ثم دعاة القبائل. وقريب من هذا ما أتى به حسن بن نوح فى كتابه الأزهار[3]. ولكى نفهم هذه المراتب السفلية يجب أن نعرف أن لكل إمام فى عصره اثنتى عشرة حجة متفرقين فى جزائر الأرض إذ اعتقد الفاطميون أن الأرض مقسمة إلى اثنى عشر قسما على مثال الاثنى عشر شهرا من شهور السنة وسموا كل قسم من هذه الأقسام بالجزيرة، فنصبوا لكل جزيرة حجة هو كبير دعاتها ويسمى أيضا بصاحب الجزيرة[4] ولكل حجة من هؤلاء الحجج ثلاثون داعيا ويسمى نقيبا أيضا على مثال أيام الشهر ولكل داع أربعة وعشرون داعيا مأذونا على عدد ساعات الليل والنهار[5] وهؤلاء الحدود متصلون بالإمام المطلق القائم، وأدنى مرتبة من هذه المراتب متعلقة بأعلاها. وعلى المؤمن أن يطيع هؤلاء الحدود فبطاعة الحدود يوحد الله[6] كما جاء فى الفترات[7]. فأول ما يجب لأبناء الحكمة معرفة هذه الحدود ومراتبها وما يوازنها إذ إن الوصى والإمام والحجة والحدود القائمين فى الشريعة كالأعضاء[8]. وعن المعز الفاطمى أنه قال: إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ولا يظنون أنا نعنى إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ولو كان ذلك لكنا قد ضيعنا من بعد

---

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٩.

(٢) تأويل دعائم الإسلام ج ١ ص ٣١٣.

(٣) ج ١ ص ٤

(٤) تأويل دعائم الاسلام ص ٢٩٧ ج٢ ص ٢٤ سرائر النطقاء على هامش جامع الحقائق والمجالس المؤيدية ج١ – ص ٢٢٩.

(٥) شرحه.

(٦) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٢٠ – ٢٣١ ورسالة شرح المعاد.

(٧) ص ١٠٩.

(٨) المجالس ج ١ ص ٢٥٣.

منا وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعى إلينا من قرب ومن بعد ولكنا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا[٩].

وحد المأذون المكاسر أو الداعى المأذون هو أقرب الحدود إلى المستجيبين. ومع ذلك فإن مرتبته كبيرة لا تتوافر إلا فيمن كان على علم تام بمذاهب خصومه وموضع الضعف فيها. ويكون لَسِنًا جدلا متمكنا من أصول مذهبه[١٠]. حدد الفاطميون الصفات التى يجب أن تتوافر فى الداعى نستطيع أن نلخصها فى ثلاثة أشياء[١١] العلم والتقوى والسياسة فقسموا العلم بين الظاهر والباطن. فعلم الظاهر هو علوم الفقه والحديث والتاريخ وعلوم القرآن ثم الجدل والكلام، وعلم الباطن فهو تطبيق نظرية المثل والممثول أو المحسوس والمعقول. أما التقوى فأن يكون الداعى من أهل العلم والعمل بالدين الإسلامى الحنيف مع الاعتقاد وأن يجمع القيام بما جاء فى القرآن الكريم وما أمر الله ورسوله به. أما السياسة فتكون أولا سياسة الداعى نحو نفسه فيصلحها ويمنعها عن الشهوات وعن جميع المنهيات ويحملها على اقتناء الفضائل وهذه تسمى السياسة الخاصة. أما السياسة العامة فهى أن يقوم الداعى بتدبير من هو سائسهم فى إصلاح دنياهم وآخرتهم ويمنعهم عن الرذائل وأن يعرف حقوق من يهاجر إليه وما احتملوا من مشقة ومحن وأن يقدر أهل العلم ومنازلهم ويجلهم ويكرمهم وأن يكون جلوسه معهم. أى أن جميع ما اشترطه الله تعالى فى القرآن الكريم لصفة المؤمن وما اشترط الأئمة فى كتبهم مما يكون فى المؤمن يجب أن يكون فى الداعى ويحتاج إلى زيادة فضائل بل تكون فى الداعى أوضح من ذلك[١٢] مع وجوب أن يكون الداعى نسيبا فى قومه فإن الشرف بالنسب والنسب يجل فى أعين الناس وإذا كان الداعى من نسب دنىء يستنكف من يجلس بين يديه ويتعلم منه ويتذلل له[١٣].

والداعى هو الذى يندب لأخذ العهد ونشر الدعوة بين المستجيبين بخلاف المأذون المكاسر لذى ليس له إلا مجادلة أصحاب الفرق الأخرى وإظهار ما فى آرائهم من خطل

---

(٩) المجالس والمسايرات للقاضى النعمان ص ١٠٥.

(١٠) الرسالة الحاتمية.

(١١) راجع تحفة القلوب وفرجة المكروب لحاتم بن إبراهيم الحامدى ضمن كتاب الأزهار ج ٢ ص ٧٤ وما بعدها.

(١٢) الأزهار ج ٢ ص ١١٠.

(١٣) الأزهار ج ٢ ص ١٢٥.

وترغيب المستجيب إلى دخول الدعوة[1]. أما الحجة وهو الحد الذى يعلو حد الداعى فهو زعيم دعاة الجزيرة والمشرف على الدعوة فى جزيرته[2] وهو الذى يعقد مجالس الحكمة حيث يلقى المحاضرات فى المذهب ويختار الإمام من حجج الجزائر الاثنى عشر واحدا يكون هو باب الأبواب أو داعى الدعاة ويسمى بالحجة فقط[3] وهو المالك لجماعة الحجج[4] وهو باب صاحب الزمان الذى يؤتى منه إليه وحجته على الخلق وحامل علمه وصاحب دعوته[5] فنسبة داعى الدعاة إلى الإمام كنسبة الوصى إلى الناطق. فكما أن للناطق التنزيل ولوصيه التأويل فحجة الإمام هو صاحب التأويل فى عصره[6]. وحد الباب الذى هو من الحدود الصفوة واللباب فهو أفضل الحدود وهو حد العصمة ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد وذلك مجمع المنتقلين من الصور الشريفة المرتقية فى المعاد ولم يبق فوقه إلا حد الإمام[7]. وأوّل الفاطميون الملائكة «بالحجج» لأن الملائكة سموا بذلك لكونهم مملكين من الله لما هم رعاته وحفظته والحجج كذلك لأن إمام زمانهم قد ملكهم نفوس شيعته وائتمنهم على أسرار دعوته فكل حجة فى مكانه ملك ولأن الحجج أيضا مبلغون عن الإمام ومترجمون عن علمه وحكمته[8] ولهذا نجد المؤيد فى شعره قد أشار إلى أنه ملك بقوله:

أنا آدمى فى الرواء حقيقتى ملـك تبيـن ذاك للمسترشـد[9]

أو:

وروائى جسم ومحصول جسمى ملـك دونـه الخطوب الجسام[10]

(١) المجالس ج ٢ ص ٢١١.

(٢) «وفى كل جزيرة نقيب منصوب لاستخلاص من فيها من الغرقى فى بحر الهيولى فهم إثنا عشر» ورقة ٤٠ B من كتاب مجموع التربية المنسوب لمحمد بن طاهر مخطوط رقم ٢٥٨٥٠ بلندن.

(٣) الرسالة الحاتمية.

(٤) تأويل دعائم الإسلام ص ٤٥.

(٥) هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ٩٣ – ٩٤.

(٦) المجالس ج ٢ ص ٢١١.

(٧) من رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة فى نصف رجب مخطوط رقم ٢٥٧٤٠ بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن

(٨) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢١٧.

(٩) ق ٥.

(١٠) ق ١٢ بيت ٣

وقال المستنصر فى خطابه إلى المؤيد:

يا حجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى

أما عمل داعى الدعاة فهو الإشراف على كل شىء يختص بالدعوة وعقد مجالسها بالقصر أو دار العلم، فكان داعى الدعاة يكتب ما يلقى فى هذه المجالس ثم يوقع عليها الخليفة ويقرؤها الداعى على أنها صادرة من الخليفة نفسه. وفى المجالس المؤيدية ما يثبت لنا ذلك فمثلا فى ذكر مناظرة المؤيد مع أبى العلاء المعرى نجد المؤيد قد قال فى المجالس مقدمة لذكر المناظرة[1] «حتى توجه من وجهناه من داعينا للقاء التركمانية فانعقد بينه وبينه من المناظرة مكاتبة لا مشافهة ما نورده بنصه فينفع الله به السامعين قال داعينا» ثم ذكر المناظرة وكذلك فى رد المؤيد على الثغورى قال فى مقدمة هذا الرد «قد وقع إلى أحد دعاتنا كتاب يترجم بالاسترشاد للثغورى»[2] مما يدل على أن هذه المحاضرات أو الدروس التى كانت تسمى «المجالس» كانت تصدر من قبل الخليفة الفاطمى ويقرؤها داعى الدعاة الذى أعدها[3].

إذن لا أستطيع أن أفهم ما رواه المقريزى والقلقشندى وتبعهما بعض المستشرقين أمثال[4] أوليرى من أن داعى الدعاة كان يلى قاضى القضاة فى المرتبة. إذ إن لكل من قاضى القضاة وداعى الدعاة عملا مستقلا يختلف تمام الاختلاف عن عمل الآخر. ثم إن مرتبة داعى الدعاة هى مرتبة روحية وهو أحد دعائم العقيدة الفاطمية ومرتبته الروحية تلى مرتبة الإمام مباشرة.

ومن يدرى لعل الفاطميين فى حفلاتهم الرسمية كانوا يقدمون قاضى القضاة على داعى الدعاة وهذا ما لا أستطيع أن أفهمه أيضا لأننا قد رأينا مرتبة داعى الدعاة أسمى بكثير مما توهمه المؤرخون والكتاب. ومهما يكن من شىء فإننا نستطيع أن نعرف من هذا الفصل

---

(١) المجالس ج ٢ ص ٩٣ – ٩٤.

(٢) المجالس ج ٢ ص ٩٩.

(٣) جاء فى كتاب الفلك الدوار ص ١٦٥ إن الذين كان يعهد إليهم بالدعوة كانوا يتلقون علومهم فى النحو والفلسفة والمنطق والنجوم وأصول الفقه فى الأزهر وحينما يبلغون فيه أشدهم العلمى يغادرنه إلى دار الحكمة حيث تلقى عليهم أصول القيام بمهام شئون المذهب وإن هذا القسم من دار الحكمة كان يدعى إذ ذاك «بمائدة الرشد» أو بالأحرى بقبة الهدى.

(٤) O'leray: History of the Fatimid Kalifate London 1923 p 135

القصير مكانة المؤيد قبل وصوله إلى مصر فقد كان حجة لجزيرة فارس ثم وفد على مصر وطمع فى أن يكون داعى الدعاة فلم يوفق إلى ذلك إلا بعد عودته من مؤامرة البساسيرى أى عام ٤٥٠ هـ فنال بذلك أقصى ما يتمناه المستجيب من الترقى فى درجات الدعوة الفاطمية.

الفصل الخامس

مؤلفات المؤيد

قال صاحب عيون المعارف «وكان للمؤيد تصانيف جمة فى الحجج والسير والأخبار وله أدعية ومناجاة فى الأوراد مشهورة»[1] وقال الأستاذ إيفانوف ما ترجمته «كان المؤيد مؤلفا بارعا كتب بالعربية والفارسية ولا تزال كتبه من أمهات كتب الإسماعيلية إلى الآن»[2] ثم سرد مؤلفات المؤيد على هذا النحو:

١ – المجالس المؤيدية.

٢ – المجالس المستنصرية.

٣ – ديوان المؤيد.

٤ – سيرة المؤيد فى الدين.

٥ – شرح المعاد.

٦ – الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير.

٧ – الابتداء والانتهاء.

٨ – جامع الحقائق فى تحريم اللحوم والألبان.

٩ – قصيدة الإسكندرية وتسمى أيضا بذات الدوحة.

١٠ – تأويل الأرواح.

١١ – نهج العبادة.

١٢ – المسألة والجواب.

١٣ – أساس التأويل.

وقد وقفت على مجموعة خطية لأحد إسماعيلية الهند أثبت فيها فهرست كتب الإسماعيلية منذ العهد الفاطمى فوجدت الكتب التى تنسب إلى المؤيد تختلف بعض الشيء عما ذكره إيفانوف. فلم أجد فى هذا الفهرست الذى فى المجموعة الكتاب الثانى

---

(١) ص ٤٥٨.

(٢) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature p 43

والسادس والثامن والتاسع والعاشر من الكتب المتقدم ذكرها وأضيف إلى كتب المؤيد كتابان آخران هما المسائل السبعون ونهج الهداية للمهتدين. واتفق إيفانوف وجامع المجموعة الخطية على أن الكتاب الثانى عشر ينسب إلى المؤيد أحيانا وينسب إلى على بن محمد الصليحى اليمنى أحيانا أخرى.

أما الكتاب الثانى وهو المجالس المستنصرية فنسبه صاحب المجموعة إلى بدر الجمالى كما ذكر إيفانوف أن لبدر الجمالى مجالس تسمى بالمجالس المستنصرية غير التى تنسب للمؤيد. وقد ذكرنا فى مقدمة المجالس المستنصرية أنها ليست للمؤيد وليست لبدر الجمالى إنما هى لداعية آخر لقب بعلم الإسلام ثقة الإمام ولم نستطع إلى الآن معرفة اسمه[1]

وذكر إيفانوف أن كتاب «أساس التأويل» هو الكتاب الفارسى الوحيد المعروف للمؤيد وأن المؤيد ترجم هذا الكتاب عن العربية لكتاب لأبى حنيفة النعمان المغربى يعرف «بأساس التأويل» وهكذا قال أيضا صاحب المجموعة الخطية وقد قدر لى أن أقرأ كتاب «أساس التأويل» للقاضى النعمان وهى نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٤ فوجدته يبحث فى تأويل قصص الأنبياء بعد أن قدم فى عدة صفحات قليلة بوجوب التأويل ومعرفة الظاهر والباطن.

أما قصيدة الإسكندرية أو ذات الدوحة التى نسبها إيفانوف[2] إلى المؤيد فهى بلا شك ليست للمؤيد فى شىء. وقد ذكرت هذه القصيدة فى جميع نسخ ديوان المؤيد التى بين يدى فى القسم الذى يلى أشعار المؤيد فقد جاء فى نسخة (ل) هذه قصيدة الإسكندر رحمه الله. وفى نسخة (ق) هذه القصيدة للإسكندرانى رحمه الله وفى نسخة (ف) هذه قصيدة الإسكندرانى رحمة الله عليه وهى الموسومة ثم إن القصيدة فى مدح العزيز بن المعز لدين الله الفاطمى والمؤيد فى جميع شعره لم يذكر العزيز ولم يمدحه لأن العزيز أقدم عهدا من المؤيد والأسلوب فى هذه القصيدة يختلف اختلافا تاما عن أسلوب المؤيد الشعرى لهذا كله لا أستطيع أن أوافق إيفانوف على نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد وأرجح أنها لشاعر من الشعراء الذين كانوا فى عهد العزيز.

---

(١) راجع كتاب المجالس المستنصرية من مطبوعات دار الفكر العربى.

(٢) ص ٤٩.

المجالس المؤيدية

لعل أكبر أثر تركه المؤيد هو كتاب المجالس المؤيدية وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها فى مجالس الدعوة وتجمع مذهب الفاطميين كله إذ لم يترك المؤيد شيئا عن هذا المذهب دون أن يتحدث عنه فى محاضراته هذه التى بلغت الثمانمائة محاضرة. ولا أدرى تماما متى جمعت ومن الذى أطلق عليها هذا الاسم ولكن الذى لاشك فيه أن الداعى اليمنى حاتم بن إبراهيم الحميدى المتوفى سنة ٥٩٦هـ رتب هذه المحاضرات بحسب موضوعاتها ونشرها باسم «جامع الحقائق» فأدى بذلك خدمة جليلة لمن يبحث فى «المجالس المؤيدية» ويجب أن نلاحظ أن كثيرا جدا من الكتب الفاطمية ولا سيما كتب الدعاة أطلق عليها اسم المجالس وقد ذكر إيفانوف نحو ستة عشر كتابا باسم المجالس لدعاة مختلفين وقال إن أغزرها مادة هى المجالس المؤيدية.

لا أستطيع أن أجزم إذا كان المؤيد ألقى بمصر محاضراته الثمانمائة التى يضمها كتابه المجالس المؤيدية وإن كنت أرجح أنه ألقى بعضها بمصر بعد أن تولى مرتبة داعى الدعاة عام ٤٥٠ هـ فإنه أشار فى بعض مجالسه[١] إلى الوشايات التى كانت تحاك ضده بفارس والتى تحدثنا عن شىء منها فى حديثنا عن حياته. وأشار فيها إلى بعض أحاديثه الدينية مع أبى كاليجار[٢] وإلى مناظرته مع المعرى[٣] أى أن هذه المجالس ألقيت بعد ذلك كله وقد أذهب إلى أبعد من ذلك فأزعم أنه ابتدأ فى إلقاء مجالسه فى أوائل ذى القعدة من عام لا أستطيع تحديده إذ نرى المجلس الرابع والخامس عن الحج وقال إنه ألقاها فى أيام الحج[٤] والمجلس السادس عن غدير «خم» وهو فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة.

قسم حاتم بن إبراهيم المجالس المؤيدية إلى ثمانية عشر بابا جمع فى الباب الأول ما ذكره المؤيد عن التوحيد وفى الباب الثانى ما اختص بالإبداع والمبدع الأول وفى الثالث ما ذكر عن الناطق السادس وهو النبى محمد صلى الله عليه وسلم وفى الرابع عن النبى والوصى على بن أبى طالب وأفرد الباب الخامس لعلى بن أبى طالب وجمع فى الباب السادس ما قيل فى إثبات الإمامة فى ولد على وأن الإمامة تنتقل من والد إلى مولود لاتنقطع إلى يوم

(١) المجالس ج ٢ ص ١١٣.

(٢) المجالس ج ٢ ص ١٢٢.

(٣) المجالس ج ٢ ص ٩٣.

(٤) المجالس ج ١ الورقة الرابعة وما يليها.

القيامة وفى الباب السابع حديث عن الحدود وفضلهم وما يجب نحوهم وفى الباب الثامن[1] ما قيل فى المادة والتأييد والوحى المتصل بالأنبياء ثم الحديث عن النطقاء والأوصياء وفى الباب التاسع والعاشر ذكر وجوب أخذ العهد ووجوب التأويل وصحته وفى الباب الحادى عشر نجد رد المؤيد على غلاة الشيعة وعلى أهل التناسخ والباب الثانى عشر يتضمن رد المؤيد على الفلاسفة والمعطلة والمنجمين ثم فى الباب الذى يليه الرد على المعرى وهى المعروفة برسائل المعرى مع داعى الدعاة ولكنا لا نجد فيها رسائل أبى العلاء بل ذكر فقط رسائل المؤيد إليه ونجد فى هذا الباب أيضا رد المؤيد على المعتزلة والسنة واليهود ولاسيما رده على ما كتبه ابن الراوندى فى كتابه الزمردة الذى يحتج فيه على الرسل ويبرهن على إبطال الرسالة[2] وفى الباب الرابع عشر جمع الحديث من الأضداد فى عهد الوحى والأئمة وأضداد كل ناطق وإبليس كل عصر. والباب الخامس عشر جمع بعض مناجاة المؤيد وخطبه ومواعظه وجعل الحديث فى الباب السادس عشر فى ذكر فضل قائم القيامة والباب السابع عشر عن المعاد والثواب وذكر أهل العذاب وختم الكتاب بالباب الثامن عشر وهو الخاص بأهل العذاب أيضا.

هذه هى الموضوعات التى تحدث عنها المؤيد فى مجالسه وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن المؤيد كان رجلا واسع الاطلاع عالما بمذهبه وبآراء جميع الفرق الإسلامية الأخرى وبما نقل إلى العربية من مذاهب الفلاسفة الأقدمين، والمؤيد فى كثير من مجالسه كان يأخذ آية من القرآن أو قولا مأثورا عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن أحد أئمة الفاطميين ويشرحه شرحا يتفق مع ما كان يدعو إليه فهى «مجالس تأويل» إن صح أن نسميها بهذا الاسم وهنا تتجلى لنا شخصية المؤيد إذ إن «حجة الإمام هو صاحب التأويل فى عصره»[3] كما أن الوصى هو صاحب التأويل فى دور الناطق وأكثر كتب الفاطميين التى بين يدى يغلب عليها تأويل القرآن والأحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ككتاب الكشف وسرائر النطقاء وأسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن الفاطمى وكتاب أساس التأويل وتأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان.

ولكن هذه الكتب يختلف بعضها عن بعض فى التأويل وسنعرض لذلك فى حديثنا عن التأويل.

---

(١) يبدأ القسم الثانى من جامع الحقائق المحفوظ بمكتبة الجامعة المصرية بالباب الثامن بينما نجد إيفانوف ص ٥٥ قال إن القسم الثانى يبدأ بالباب التاسع ولم يحدثنا إيفانوف عن موضوع الباب الرابع والتاسع.

(٢) انظر الدكتور بول كراوس فى مجلة Revista degli Studi Orientali وكتاب الانتصار ص ٢٦ و٢٧ وابن خلكان ج ٦ ص ٣٧

(٣) فاتحة جامع الحقائق ج ٢ ص ١٥٣

وكان من عادة المؤيد فى مجالسه أن يبدأها بمقدمة يحمد فيها الله ويثنى بالصلاة على النبى وعلى وصيه ثم يخاطب السامعين بقوله: «معشر المؤمنين»[1] «معلوم أن» أو «اعلموا أن» وكثيرا ما كان يدعو للمؤمنين بالصلاح والتقوى والتقرب إلى الإمام. كما كان يختم كل مجلس بالدعاء أيضا للمؤمنين الذين استمعوا إليه ثم يعقبها بحمد الله والصلاة على النبى والوصى والأئمة من ذريته. وأسلوبه فى هذه المجالس هو نفس أسلوبه فى مؤلفاته الأخرى بل أستطيع أن أقول إنه نفس أسلوبه فى نظمه فقد كان المؤيد كاتبا أجهد نفسه فى تنميق اللفظ واختياره محاولا السجع فى كل عباراته كأنه كان يكتب مقامات.

لم يحدثنا المؤيد ممن استقى علومه التى أودعها هذه المجالس فلم يذكر عن أى عالم من علماء مذهبه أخذ علومه. ولكنه كثيرا ما كان يشير إلى كتاب دعائم الإسلام[2] وإلى عالم أهل البيت وقصد به جعفر الصادق وصرح باسم جعفر الصادق مرارا[3] وفى رده على المفسرين ذكر اسم ابن جرير الطبرى[4] وليس معنى ذلك أنه أخذ عن النعمان أو جعفر الصادق أو عن الطبرى فإن المؤيد لم يعاصر هؤلاء الأعلام وإن كان قد استفاد بما تركوه كما كان يشير إلى نفسه بقوله: «وقع فى أيدى أحد دعاتنا»[5] سئل العالم «قال العالم» لأنه كان يستر نفسه موهما جمهور المستمعين أن هذه المجالس إنما هى صادرة من الإمام نفسه.

السيرة المؤيدية

وهذا كتاب آخر من مؤلفات المؤيد قدر لى أن أستفيد منه ففيه ترجمة حياة المؤيد منذ عام ٤٢٩ هـ وعلى هذا الكتاب اعتمدت فى كتابة الجزء الخاص بحياة المؤيد كما اعتمد الداعى إدريس فى كتابيه «عيون الأخبار» و «زهر المعانى»[6] ويخيل إلىّ أن المؤيد ابتدأ فى كتابة هذه السيرة بعد أن هرب من فارس واستقر بمصر فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام ففى القسم الأول تحدث عما كابده من المشاق فى فارس وعن الدسائس التى كانت تحاك ضده فى بلاط أبى كاليجار وما كابده من المشاق فى مسيره إلى مصر وبينما المؤيد فى هذا القسم

---

(١) المجلس الأول.

(٢) المجالس ج ١ ص ١٥٦

(٣) المجالس ج ١ ص ١٥٤ وفى مواضع كثيرة اخرى.

(٤) المجالس ج ١ ص ٢٢٢

(٥) المجالس ج ٢ ص ٩٦.

(٦) الهمدانى.

الأول قال: «فإن بعض الناس خاضوا فى حديث الثورة التى جرت بشيراز مما ألف بين عزيمة السلطان الذى كان بها المكنى أبا كاليجار وقصد العوام لرفع الدعوة العلوية. قائلين إن دون ذلك مما لم يهل وقوعه كهوله ولم يرع مسموعه كروعه دوّن فى الكتب وأودع بطون الصحف ليكون للمستبصر تبصرة وللمذكر تذكرة فما يمنع أن يكون هذا الأمر الهائل مثبتا كثبوت الغير ليكون فى الغابرين باقى الذكر فاستخرت الله تعالى فى اقتصاص ذلك وشرح ما تبعه...إلخ»[1] أى يدلنا على أن المؤيد إنما أراد أن يكتب هذه السيرة على هيئة كتاب تاريخ كالكتب التاريخية الأخرى، نجده فى أول القسم الثانى قال «وصل كتابك يا أخى أطال الله بقاءك ترثى لى عن محن تشرق معى إن شرقت وتغرب معى إن غربت»[2] فكأنه على هذا النحو قد كتب القسم الثانى على هيئة خطاب منه إلى شخص نجهله ويخيل إلى أنه كتب القسم الأول من سيرته بعد مقامه فى مصر ثم أخذ فى كتابة القسم الثانى فى أوقات متفرقة، وتحدث فى هذا القسم عما كان عليه بلاط الخليفة الفاطمى المستنصر بالله من اضطراب وكيف تلاعب الوزراء وأم الخليفة بالبلاد وبالخليفة نفسه كما أورد فى نهاية هذا القسم صور الخطابات التى تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب ثم التى تبودلت بين المؤيد والوزراء فى مصر إبان مؤامرة البساسيرى، أما القسم الثالث فقد حدثنا فيه عن خروجه من الرحبة وما حدث له فى حلب ووصوله إلى مصر وما كان من نجاح البساسيرى.

وقد بدأ كل قسم من هذه الأقسام بالبسملة فحمد الله والصلاة على النبى والوصى وبها اختتم أيضاً كل قسم. وتعد السيرة المؤيدية وثيقة تاريخية من أهم الوثائق التى عرفها التاريخ وتاريخ القرن الخامس خاصة إذ أن جميع المؤرخين الذين تحدثوا عن قيام الدعوة الفاطمية فى بغداد عام ٤٥٠ هـ لم يحدثونا طويلا عن كيفية قيام هذه الدعوة ولا عن المحرك لها بل جعلوا كل حديثهم منصبا على علاقة البساسيرى بالقائم بأمر الله وابن المسلمة وطغرلبك، أما المؤيد فقد أعطانا فى هذا الكتاب صورة حقيقية عن كل دقائق هذه المؤامرة أثبت فى هذا الكتاب كل الرسائل التى تبادلها مع أمراء العرب من ناحية ومع وزراء مصر من ناحية أخرى وفى هذه الرسائل تظهر لنا بجلاء حالة العالم الإسلامى فى القرن الخامس للهجرة واتجاهات أمرائه وتلاعبهم بالعباسيين تارة وبالفاطميين تارة أخرى، فلا غرو إذا قلنا إن هذا الكتاب فريد فى بابه، وحيد فى نوعه، يحتاج إليه كل مؤرخ إسلامى وأديب عربى، هذا الكتاب القيم خامس حلقات سلسلة مخطوطات الفاطميين[3].

---

(١) السيرة ج ١ و٢.

(٢) السيرة ص ١١٩.

(٣) راجع السيرة المؤيدية من مطبوعات دار الكاتب المصرى.

رسائل المؤيد وأبى العلاء المعرى

رجح إيفانوف أن الكتاب الثامن من كتب المؤيد وهو جامع الحقائق فى تحريم اللحوم والألبان مستخرج من المجالس المؤيدية[1] وهو المعروف الآن برسائل المعرى وداعى الدعاة. وذكر ياقوت هذه الرسائل فى معجم الأدباء ونشرها الأستاذ مرجوليوث بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ م[2] وذكر لنا الناشر أن هذه المكاتبات كانت فى سنة ٤٣٨هـ[3] ولكنى أخالفه فى ذلك وأذهب إلى أنها كانت سنة ٤٤٩ هـ إذ تجمع المصادر التى تحدثت عن أبى العلاء على أن رسالة داعى الدعاة الأخيرة وصلت معرة النعمان بعد وفاة أبى العلاء الذى توفى سنة ٤٤٩ هـ وهناك بعض نصوص تدلنا على أن المؤيد داعى الدعاة كان فى حلب أثناء هذه المناظرة فقد نقل ياقوت عن كتاب فلك المعانى: لما كانت المناظرة بين أبى العلاء وبين داعى الدعاة بمصر فى ذبح الحيوان أمر داعى الدعاة بأن يؤتى بأبى العلاء إلى حلب.

وفى الرسالة الثالثة والأخيرة من رسائل داعى الدعاة تصريح بأنه كان فى الشام أثناء هذه المناظرة. وهناك نص آخر ورد فى المجالس المؤيدية على لسان الخليفة المستنصر حتى توجه من وجهناه من داعينا للقاء التركمانية فانعقد بينه (أى بين الداعى) وبينه (أى بين أبى العلاء) من المناظرة مكاتبة لا مشافهة[4]. هذا كله يدل على أن المؤيد كتب هذه الرسائل وهو يدبر مؤامرة البساسيرى وقد ذكرنا أنه خرج من مصر سنة ٤٤٨ هـ وإنه كان بحلب سنة ٤٤٩هـ.

يخيل إلىّ أن المؤيد لم يسرف فى الحكم على أبى العلاء إسراف معاصريه. ولم ير فى عقيدة أبى العلاء ما رآه غيره وقد ذكر المؤيد فى مجالسه: قد انتهى إليكم خبر الضرير الذى نبغ بمعرة النعمان وما كان يعزى إليه من الكفر والطغيان على كون الرجل متقشفا وعن كثير من المآكل التى أحل الله له متعففا. وقد كان خبره يصل إلى كل صقع بما يحرك النفوس للفتك به حمية بزعمهم للدين وغيرة على الإسلام والمسلمين[5].

---

(١) A Guide to Ismaili Literature p 49

(٢) J R A S (1902) p. 280 - 290

(٣) J R A S. p. 290

(٤) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٩٣.

(٥) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٩٣.

وكان سبب هذه المناظرة كما حدثنا المؤيد أنه جرى ذكر أبى العلاء فى مجلس الناظر فهجاه الحاضرون وأغروا الناظر بدمه وادعوا أن الغيرة على الدين تبيح قتل المعرى ولكن أحد الحاضرين اقترح أن يجرد لأبى المعرى من يحاجه ويناظره حتى ينكشف عواره وينحط قدره[1] ويفهم من رسالة المؤيد الثالثة أن المؤيد نفسه هو الذى اقترح ذلك وأنه كان فى ذلك المجلس.

وكان غرض المؤيد من هذه المناظرة أن يعرف حقيقة مذهب أبى العلاء وأن يستوضح سره ولذلك بدأ المؤيد رسالته الأولى بشىء من الظرف والإعجاب بأبى العلاء بينما نجده فى الرسالة الثانية قد سخر بأبى العلاء وأنه لم يجد عند أبى العلاء ما كان يأمله. أما أبو العلاء فقد سمع من قبل بأمر المؤيد داعى الدعاة وكان يعرف مقدرته وحجته ولذلك بالغ فى تعظيم داعى الدعاة وتفخيمه حتى قال إنه لو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه وأفلاطون لنبذ حججه. والواقع أن المؤيد ضيق الخناق على أبى العلاء وكان أبو العلاء يتلمس الطريق للهروب من خصمه فأخذ يحاوره ويحاول الفرار من موضوع المناقشة والمؤيد يجذبه نحو الموضوع ولو طالت حياة أبى العلاء لظفر الأدب العربى بثروة عظيمة بالمناظرة بين هذين الفحلين.

أما ما قيل إن المؤيد داعى الدعاة أمر بأن يحمل إليه المعرى ليخيره بين الإسلام والموت وأن المعرى خاف فسم نفسه فهذا ما لم يقبله أحد من القدماء ولا المحدثين الذين سمعوا هذه الرواية.

---

(١) شرحه.